

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
ميخائيل نعيمة
أكابر
نوفل
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

نوفل



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

صدرت عام 2015 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة العشرون، 2016

سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 11-0656، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

تصميم الغلاف: **معجون**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-018-5
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-442-8

أكابِر

بقي أبو رشيد وأمّ رشيد حتّى ساعة متأخّرة من الليل يتداولان في أمر بالغ الأهمّيّة فما يستقرّان على رأي. فقد جاءهما من «الأستاذ» أنّه قادم في الغد ليقسم البيدر. وإذن فلا بدّ من إعداد الغداء التقليديّ. فماذا يُعدّان له؟ لقد كان المرحوم والده رجلًا أمّيًّا مثلهما، بسيط اللّباس والعادات والحديث. وكان كلّما جاء لقسمة البيدر في أواخر الصيف يأبى الجلوس إلّا على التراب، تحت البلّوطة التي بقرب البيدر، حيث كانت أمّ رشيد تأتي بالغداء على صينيّة من القش. والغداء مهما أسرفت أمّ رشيد في البذخ، ما كان يتجاوز بضع بيضات مقلية «بالقاورمة» مع كمّيّة من اللبن الرائب، وشيء من البصل والخيار، والكثير من الخبز المرقوق أو «المرحرح»، وقليل من العسل – إذا تيسّر العسل.

لكنّ الوالد انتقل إلى رحمة ربّه في الشتاء الماضي. وبانتقاله إلى رحمة ربّه انتقلت أملاكه الواسعة إلى ابنه. ومع الأملاك الشركاء، ومنهم أبو رشيد. وكان من أحبّهم وأقربهم إلى الوالد.

و«الأستاذ» محامٍ يعيش في العاصمة عيشة «الكبار» وزوجته كذلك من «الكبار». ولهما ابنة وحيدة في سنّ رشيد – أي في ربيعها السابع. ومن الأكيد أنّ الأستاذ لن يأتيهم وحده. بل سيصطحب زوجته وابنته وخادمته وسائق سيّارته، فكيف يليق بأبي رشيد وأمّ رشيد أن يستقبلاهم؟

وأين يجلسانهم في خيمتهما المصنوعة من جذوع الأشجار وأغصانها؟ أيجلسانهم على «الطراريح»؟ أم يمدّان لهم فراشهما ليجلسوا عليه؟ وماذا يقدّمان لهم من المأكول والمشروب؟ وكيف يقدّمانه؟ إنّهم «كبار» لا يأكلون إلا بالسكاكين والفرتيكات وفي صحون صينيّة. ولا شيء من ذلك عند أبي رشيد وأمّ رشيد. حتّى ولا طاولة. وجلّ ما يملكانه من هذا القبيل بضعة صحون معدنيّة وإبريق من الخزف وبضع ملاعق خشبيّة و«طبليّة».

تلك هي الأمور التي كانت تشغل بال أبي رشيد وأمّ رشيد تلك الليلة. فما أن يتفقا على رأي حتّى تقوم في وجهه صعوبات ومشكلات. هكذا اتفقا في البداية على أن يذبحا جديهما المدلل وهو لم يبلغ

بعد سنّ الفطام. فما أن سمع ابنهما رشيد ذلك حتّى جنّ جنونه وأخذ يبكي ويلطم ويتمرّغ على الأرض كمن صرعه روح نجس. فقد كان الجدي أعزّ ما لديه في الدنيا. وكانت النتيجة أن نجا الجدي وجُعل الديك فداءه. ولم يكن لأبي رشيد وأم رشيد غير ذلك الديك وثلاث دجاجات. وهنا، كذلك، انتابت رشيدًا نوبة من البكاء والعويل وتمزيق الثياب والغصص والسعال حتّى خشي والداه على حياته... فقد كان يحبّ ديكه الأحمر. ويطعمه من يده، ويحمله على كتفه، ويعتزّ بجماله وقوّته، ورخامة صوته، وعلى الأخصّ بالترجيعة العذبة في آخر صياحه. فكان أن عدل الوالدان عن قتل الديك. وكان أن نام ابنهما من بعد أن بلّل مخدّته بدموعه. ثمّ كان أن اتّفق الوالدان في النهاية على ذبح دجاجة من دجاجاتهما الثلاث.

وإذا بلغ الزوجان تلك النهاية تنهّدت أم رشيد وقالت بحرقة بالغة:

– ولدي! لقد نام والغصّة في حلقه وستعاوده الغصّة عندما يستفيق في الصباح فيرى أنّنا قد ذبحنا دجاجة من الثلاث. فهو يحبّهنّ جميعًا.

فقال أبو رشيد:

– سيبكي قليلًا ثم ينساها. وما العمل؟ أيأتينا الأستاذ لأوّل مرّة ولا نقوم بواجبه؟

– دعنا منه يا رجل. كلّ دمعة من عين ابني تساوي كلّ ما يملك! أنسيت أنّنا دفنّا ثلاثة من إخوته ولم يبقَ لنا سواه؟ وأن لا أمل فيما بعد بغيره؟ إنّ ظفره عندي بالدنيا.

– لا تنسي يا امرأة أنّنا شركاء. وأنّنا مدينون لصاحب الأرض بثلاثة آلاف قرش. فجدير بنا أن نحسن استقباله وضيافته. ولو كنّا نعرف أنّه سيكون رفيقًا بنا كوالده لهان الأمر، ولكنّنا نجهل دخيلته.

– رحمة الله على والده. فما كان يطالبنا حتّى بالفائدة.

– إي. رحمة الله على عظامه. لقد كان طيّب القلب. ولكن الزمان يتغيّر بسرعة يا امرأة، ومع الزمان الرجال، فما ندري كيف يكون طالعنا مع الابن.

– قلبي يحدّثني بأنّه لن يكون طالع خير.

وفي الصباح الباكر انصرفت أم رشيد لترتيب هندامها وتنظيف خيمتها وإعداد الغداء لضيوفها. ولم يكن من السهل عليها تهدئة روع ابنها عندما نهض من النوم فأبصر على مقربة من الخيمة دم الدجاجة وريشها المنتوف! وحلق أبو رشيد ذقنه ولبس أحسن سراويله، وانصرف إلى البيدر يكنسه بمكنسته الشائكة، ويغربل ما تبقّى من القمح دون غربلة، ثم يطرحه على الكومة القائمة في وسط البيدر، ثمّ يدور حول الكومة آسفًا في قلبه لأنّها تكاد لا تكون نصف ما كانت عليه في الموسم الماضي. لقد بخلت السماء بالمطر في أوانه، وجادت به في غير أوانه. فكان القحط، وكانت هذه

الكثرة الهائلة من الزؤان مع القمح. وفي ذلك أكبر الدليل على أنّ أيامه مع «الأستاذ» لن تكون هانئة كأيّامه مع والده. فالكتاب يُقرأ من عنوانه.

وحفن أبو رشيد حفنة من القمح وأخذ يعدّها حبة حبة. وقد قال في ضميره: «إذا جاء العدد شفعًا [1] فنحن باقون على هذه الأرض، والأستاذ لن يطالبني بالفائدة. وإذا جاء وترًا [2] فالأستاذ سيطالبني بالفائدة. فإن لم أتمكّن من دفعها طردني من الأرض وجاء بشريك غيري». وكان أن جاء العدد وترًا. فاضطرب أبو رشيد أشدّ الاضطراب. لكنّه ما عتّم أن أنّب نفسه على اضطرابه، ثمّ راح يسلّي نفسه بالغناء.

عاد أبو رشيد إلى الخيمة فوجد زوجته منهمكة في تصفيف الصحون المعدنيّة والملاعق الخشبيّة على الطبليّة، وقد مدّت «الطراريح» من حولها في شكل هندسي لطيف. ووجد ابنه يلاعب الجدي، وكان يدعوه تحبّبًا «عفريت»... فآنًا يركض وراءه، وآونة يحمله على منكبيه، وأخرى يمسك بيديه ويمضي يدور وإياه دورات كأنّها الرقص الموقّع خير توقيع. ثمّ يترك الولد الجدْيَ وينادي الديك، وقد سماه «سلطان». فيهرول سلطان إليه في الحال. ويأتيه الولد بشيء من الحَب فيلتقطه من يده، حتّى ومن بين شفتيه. ثمّ يدفعه الولد صعودًا في الهواء فيصفّق تصفيق الهلع بجناحيه، ولا يلبث أن يحطّ على رأس صاحبه أو كتفه، وأن يطلق صوته الرخيم بعيدًا وعاليًا. فيأخذه الولد بين يديه ويطبع قبلة على كلّ عين من عينيه ثمّ يرسله في سبيله، ووجهه – أي وجه الولد – طافح بالبشر والسعادة.

قاربت الساعة الثانية فكاد أبو رشيد وأمّ رشيد يقنطان من مجيء ضيوفهما.

وإذا بهدير سيّارة يأتي من بعيد. وإذا بالسيّارة تقف بعد دقائق على الطريق العمومي على مرمى حجر من الخيمة، وإذا برجل وامرأة وخادمة وابنة صغيرة يترجّلون من السيّارة ويسيرون في اتجاه الخيمة. فيسرع أبو رشيد وأمّ رشيد للقائهم وكلاهما يصيح من بعيد:

– أهلًا وسهلًا! يا ألف أهلًا وسهلًا ومرحبا بالأستاذ و«مضامته» – مدامته – والعروس الصغيرة!

وإذ يدركان الضيوف ينكبّ أبو رشيد وأمّ رشيد على أيدي الأستاذ و«مضامته» فيشبعانها لثمًا. ويحاولان تقبيل ابنة الأستاذ الصغيرة فتنفر منهما مذعورة وتحتمي بالخادمة. ولا يأبه رشيد للقادمين فيمضي يداعب «عفريت» تارة، و«سلطان» تارة أخرى.

وعندما بلغ الجمع الخيمة بعد عناء وتأفُّف من قِبَل زوجة الأستاذ، واعتذار مستمرّ من أبي رشيد وأمّ رشيد، وقفت هذه الأخيرة بجانب الباب وانحنت وهي تفرك يديها بارتباك وتقول بصوت متلجلج:

– تفضّلوا... تفضّلوا... يا عيب الشوم... لا تواخذونا. ما في شيء من قيمتكم. بيت الضيق يسع ألف صديق... تفضّلوا على فضلكم.

فالتفتت إليها زوجة الأستاذ وقالت بازدراء ظاهر:

– وإلى أين؟ أين البيت؟

فاختنقت أمّ رشيد وأجابت بلسان متلعثم:

– البيت يا ستّ؟! هذا هو البيت يا ستّ – هذه الخيمة التي ترين هي بيتنا الصيفيّ في هذه الجبال...

وهنا تناول الأستاذ الحديث فقال مخاطبًا زوجته بالفرنسية:

هكذا يعيش هؤلاء الفلاّحون في جبالنا، في مثل هذه الخيام صيفًا، ومن بعد أن يجمعوا غلالهم ويزرعوا زرعهم للموسم القادم ينحدرون إلى قراهم حيث يصرفون الشتاء في أكواخ بسيطة ولكنّها نظيفة ودافئة. وقرية شركائنا هؤلاء تبعد من هنا نحوًا من سبعة أميال. وقد اجتزناها في طريقنا.

فأجابته زوجته بالفرنسية:

– إنّهم يعيشون في الصيف كالذئاب، وفي الشتاء كالدببة. وأين تريدنا هذه العجوز أن نجلس؟

– في الخيمة.

– في هذه الخيمة؟! وعلى الأرض؟! لا. لن أخاطر يا عزيزي باسكربينتي وفستاني. افعل ما تشاء. أمّا أنا فلن أدخل هذه الخيمة على الإطلاق.

– ولكنّهم أعدّوا لنا غداء، ونحن جياع، وابنتنا على الأخصّ. وإن نحن لم نأكل من زادهم اعتبروا ذلك إهانة لهم.

– ليعتبروه كيفما شاءوا. فلا أنا مستعدّة أن آكل من زادهم، ولا أسمح لصغيرتنا «نونو» أن تأكل من هذه الصحون المعدنيّة، وبملعقة من خشب، أين أنت؟! ألعلّك فقدت عقلك؟

– ما فقدت عقلي، ولكنّني لا أستطيع أن أطعن هؤلاء الناس في الصميم.

– قل لهم إنّنا تناولنا غداءنا في الطريق، ولا تطل المكث. فإنّي لا أرى عندهم كرسيًّا أجلس عليه. لننصرف من هنا بأسرع ما يمكن.

وهكذا كان. فقد اعتذر الأستاذ لأبي رشيد وأمّ رشيد فنزل عذره عليهما نزول الصاعقة. وانعقل لساناهما فما يدريان ماذا يقولان. وامتقع وجهاهما حتّى لكانا يؤثران الموت على مثل تلك الصفعة. وأخيرًا أخذ الأستاذ أبا رشيد جانبًا، وانتحى به ناحية، وذكّره بالدَّين الذي لوالده عليه. وطلب إليه أن يدفع الفائدة في الأقلّ عن السنوات الخمس التي مرّت. فانكمش قلب أبي رشيد وراح يفرك يديه فركًا عصبيًّا ويقول من غير أن يدري ما يقول:

– ورحمة أولادي الثلاثة. ورحمة أبيك يا أستاذ... ليضربني الله بعينيّ الاثنتين... ما نسيت الدَّين. وسأدفعه إن شاء الله مع الفائدة. ولكنّ حصتي من الموسم في هذا العام لا تكفيني وعائلتي. ولا أدري من أين آتي بالمال لأبتاع حاجتنا من القمح...

– تدبّر أمرك بمعرفتك يا أبا رشيد. أمّا مالي فمن حقّي أن يعود إليّ.

– حقّك... نعم يا سيدي... حقّك. ولكنّ الله سبحانه لم يعطني موسمًا يضاهي أتعابي. أأقاتله؟ أأرشقه بالحجارة؟

– ذلك شغلك يا أبا رشيد. وليس شغلي. سأرسل إليك سائقي في الغد وهو يُجري قسمة البيدر. أمّا الآن فنحن مضطرون أن نعود إلى المدينة لأنّ عندنا مواعيد كثيرة. فلا تؤاخذونا.

– حاشاك. حاشاك يا سيدي. لقد نالنا من شرف زيارتكم أكثر مما نستحقّ. لسنا أهلًا لأن تمالحونا وتخابزونا يا أستاذ...

* * *

في أثناء ذلك كانت «نونو» مأخوذة بألعاب رشيد وجديه وديكه. وقد حاولت أن تقترب من رشيد ورفيقيه فانتهرها بحدّة. وعندما همّ والداها بالانصراف التفتت إلى أمّها وخاطبتها بالفرنسيّة:

– ماما! إنّي أريد هذا الجدْي وهذا الديك.

فأجابتها أمّها:

– سيكون لك ما تريدين يا نونو.

وأمرت أبا رشيد أن يحمل الجدي والديك إلى السيّارة. ففعل صاغرًا وقلبه يكاد ينفطر غيظًا. ولم يدرِ رشيد في البداية قصد أبيه من حمل رفيقيه الحبيبين إلى السيّارة التي على الطريق، ولا درت أمّ رشيد.

وهدرت السيارة وانطلقت تنهب الأرض نهبًا. وعاد أبو رشيد ولا جدْي معه ولا ديك. وإذ ذاك أدرك رشيد ما جرى، واستفاق كمن كان في غيبوبة. وطفق يعدو في أثر السيارة بكلّ ما في ساقيه من قوّة وسرعة وهو يصيح كالمذبوح:

عفريت يا عف...ريت! سلطان! سل...طان!...

وكانت السماء تسمع الصراخ، والوادي يردّد صداه.

---

1 شفع: زوجي.

2 وتر: فردي.

مَصْرع سَتّوت

ستّوت – بفتح السين وتشديد التاء – ذلك هو اسمها الحقيقيّ. ولا تسلني عن اشتقاقه ومعناه. فقد يكون صيغة عامّيّة للتصغير والتحبّب من كلمة «ستّ» بمعنى سيّدة، على غرار: حبّوب، سَلّوم، حَمّود، جَبّور، فَطّوم، الخ من: حبيب، سليم، حمد، جبر، وفاطمة. أمّا من أين جاءت العامّة بهذه الصيغة فتقديري أنّها اقترضتها من إحدى شقيقات العربيّة الساميّات. وهو تقدير قد لا يكون على شيء من الصواب. وكيفما كان الأمر، فالمهمّ ليس الاسم بل المسمّى. ألم يقل شكسبير من زمان في الوردة: «سمّها ما شئت. فعبيرها الزكّي هو أبدًا هو»؟

و«عبير» ستّوت يفوح عليك من مقدرتها الخارقة في تسقّط أخبار الضيعة ونقلها بسرعة البرق إلى آذان الكبار والصغار موشّاة ومنمّقة ببراعة لا تجارى، ومدعومة بأغلظ الأقسام التي لا تترك أدنى الشكّ في صدقها. ولها في التقاط الأخبار أساليب هي الغاية في الدهاء. ومن أساليبها أن لا تمرّ بشخص إلّا تستوقفه هنيهة بالسلام، ثمَّ بالاستفسار عن صحّته الغالية وصحّة ذويه. ولا تمضي في سبيلها إلّا وقد عرفت من أين جاء، وإلى أين يمضي، والغاية من مجيئه وذهابه. أمّا صيدها الأكبر والأوفر فيأتيها دائمًا من الصغار جريًا على القول المأثور: إذا شئت أن تعرف أسرارهم سائل صغارهم.

تزوّجت ستّوت في سنّ مبكرة، فلم تُرزق أولادًا. ولم يمضِ على زواجها أكثر من عشر سنوات عندما اختار الله زوجها إليه. فآثرت أن تعيش بقيّة حياتها أرملة لا وليّ عليها غير خالقها، وأن تنفق بالتقتير ما تركه لها المرحوم من مال وعقار. ولكم كانت تُردّد: «لَأن يعيش المرء حرًّا، خير من كلّ ما في الدنيا من أزواج وبنين». ولعلّها كانت تقول ذلك من باب تعزية النفس. إذ أنّها كانت من قباحة الصورة، وفظاعة الشكل، وضخامة الجثّة بحيث لا يُعقل أن يقدم على الزواج منها إلّا ضرير أو مخبول. ولقد كان «المرحوم» ذلك المخبول!

والمعروف عن ستّوت أنّها كانت تزور ولا تُزار. وقليل جدًّا هم الذين عرفوا بيتها أو تذوّقوا زادها. بل تكاد هي نفسها تكون من ذلك القليل، لولا أنّها كانت تأوي إلى بيتها ليلًا وتتناول فيه بعض الطعام من حين إلى حين. أمّا وقتها من الصباح حتّى المساء، فكانت تمضيه متجوّلة في طرق القرية ومتنقّلة من بيت إلى بيت. وكانت تحرص أشدّ الحرص على أن لا تزور البيت الواحد أكثر من مرّة واحدة في الأسبوع الواحد، كيلا يثقل ظلّها على أحد. وفي الواقع كان ظلّها خفيفًا على أهل الضيعة. فما كانوا يتبرّمون بزياراتها، والنسوة على الأخصّ. إذ كانت في كلّ مرّة تحمل إليهن آخر ما التقطته من أخبار فلانة وأُمّ فلان. أمّا أنّها كانت تنقل أخبارهنّ كذلك إلى فلانة وأمّ فلان، فأمر كنّ يتغاضين عنه طمعًا بما تأتيهنّ به ستوت من أخبار طازجة ومثيرة.

جاوزت ستّوت السبعين وهمّتها على خير ما يرام، برغم أنّها وقعت منذ أعوام فعطبت وركها ولزمت فراشها مدّة من الزمن. وإذ زال وجعها وجدت ألّا مناص لها من عصا تستعين بها على المشي. وشكرت ربّها على أنّ المصيبة جاءت أخفّ بكثير من أن تُقعدها عن مزاولة «مهنتها» التي كانت أقدس عندها من فروض العبادة. وهكذا مضت تطرق الدروب بعصاها وتهول بها على الكلاب وعلى جاحدي فضلها. وعادت الضيعة تستمتع بمنظر جثّتها الضخمة، وثيابها الرثّة، وعصبتها السوداء المهلهلة، وشعرها المشعّث من تحت عصبتها، ومفتاح بيتها الغليظ المدلّى بمرسة من زنّارها، ومشيتها المترنّحة نتيجة للعرج الذي سبّبته لها الوقعة.

* * *

لقد كانت ستّوت راضية كلّ الرضى عن نفسها، وعن حياتها، وعن نجاحها الباهر في القيام بالمهمة الشاقّة التي وقفت عليها جميع مواهبها وقواها. وما كانت تبالي بكلمة قارصة تسمعها بين الحين والحين من هذه الجارة أو من ذلك الجار. إذ كانت تعرف حقّ المعرفة أنّ الذين يشتمونها اليوم سيعودون من تلقائهم فيسترضونها في الغد، لا حبًّا بها، بل طمعًا في خبر جديد تحمله إليهم عن مشكلات أو فضائح جديدة في بيوت جيرانهم.

إلّا أنّ أمرًا واحدًا كان ينغّص على ستّوت لذّة الفوز في فتوحاتها التي لا انقطاع لحبلها. ذلك أنّ في الضيعة بيتًا واحدًا ما تمكّنت من اختراق حصونه بكلّ ما أُوتيته من حنكة ودهاء. فلكم حاصرته وهاجمته ولكن بغير جدوى. ولكم حاولت أن تحفر الأنفاق من تحته فكانت معاولها تتحطّم أبدًا على الصخور التي في أساسه. وكلّما ذكرت كيف أنّها دخلته منذ سنين فطُردت منه طردًا، وحُظّر حتّى على خيالها أن يمرّ بالقرب منه، كلّما ذكرت ذلك غلى الدم في عروقها، وضاق نَفسُها، وتمنّت لو كان لها أن تطلق من يدها أو من فمها صاعقة تدكّه بمن فيه وبما فيه إلى الحضيض. ولأنّها كانت تحرص منتهى الحرص على سمعتها، فما فاهت يومًا بكلمة لأيّ الناس عما كان بينها وبين ذلك

البيت، وكيف أنّها طُردت منه كما يُطرد الكلب من الهيكل. وإذا سئلت عنه قلبت شفتيها، وهزّت كتفيها وتمتمت: «نجّنا يا الله».

* * *

ذلك البيت هو بيت شاب ورث الجاه والغنى عن والديه. ثمّ اقترن بفتاة غنيّة ووجيهة ومن قرية بعيدة، فلم يمضِ على اقترانه اسبوعان حتّى جاءه من أستراليا أنّ عمًّا له توفّي هناك عن ثروة كبيرة ولأنّه وريثه الوحيد، كان لا بدّ له من السفر على جناح السرعة إلى تلك البلاد النائية. فسافر الرجل وترك زوجته الشابّة في البيت على أمل العودة إليها بعد شهرين أو ثلاثة على الأكثر. إلّا أنّه ما لبث أن انقطعت أخباره وذهبت سدى جميع المساعي التي بُذلت في التفتيش عنه. فبات في عداد المفقودين.

واغتبطت ستّوت أيّما اغتباط بتلك الكارثة تنزل بربّة البيت الذي استعصى عليها اقتحامه. ولكنّها سترت اغتباطها عن عيون الناس وآذانهم، وقالت في نفسها: «هذه هي فرصتك التي كنت تترقّبينها يا ستّوت، فاغتنميها. اذهبي إلى هذه السيّدة المتغطرسة وتظاهري بأنّك نسيت الماضي وجئت تؤاسينها في مصابها. واعرضي خدماتك عليها وامسحي عينيك بعصير البصل ليفيض دمعهما فلا تشكّ أبدًا في إخلاصك. ومن بعدها فلكلّ حادث حديث».

* * *

وفعلت ستّوت بوحي عبقريّتها. فكان الطرد نصيبها في هذه المرّة كذلك.

فاسودّت الدنيا في عين ستّوت. وبدت لها حياتها خالية خاوية، وجميع انتصاراتها هزائم في هزائم، إلّا إذا انتصرت على ذلك البيت وربّته. وشقّ عليها حتّى الموت أن لا يكون بين بيتها وذلك البيت غير واد صغير تجري في قعره ساقية صغيرة، ثمّ أن لا تجد الحيلة لاقتحامه وتسويد وجهه الأبيض. فقد حاولت غير مرة الاتصال بخدمه، ولكنّها ما استطاعت أن تحملهم على البوح بأقلّ خبر تتّخذ منه سلاحًا للهجوم. مثلما حاولت أن تلفّق الأخبار تلفيقًا، فما صدق تلفيقها أحد.

وذات ليلة، إذ كانت ستّوت جالسة في بيتها بالقرب من النافذة التي تطلّ على البيت الكبير عبر الوادي، تراءى لها أنّها أدركت أمنيتها الغالية، وأنّ النصر الذي كانت ترجوه بات في قبضتها. فقد رأت سيّارة فخمة تدرج إلى مدخل البيت ورأت شابًّا يترجّل من السيّارة ويدخل البيت. ثمّ لم ترَ الشابّ والسيارة يغادران البيت إلّا عند انبلاج الفجر. لقد افتضح أمر هذه «القدّيسة». إنّها لعاهرة. وستّوت تعرف كيف تميط عنها هالة القداسة، فلن ينصرم النهار حتّى تدرك الضيعة كلّها – كبيرها وصغيرها – أنّ البيت الكبير ليس سوى بيت للدعارة.

وأثارت حكاية ستّوت ضجّة كبيرة في الضيعة إلّا أنّها لم تلبث أن همدت ثمّ تلاشت. إذ تبيّن للكلّ، وببراهين لا تُدحض، أنّ الذي بات تلك الليلة عند ربّة البيت الكبير لم يكن غير شقيقها. وهكذا أفلت النصر مرة أخرى من يد ستّوت وانقلب انخذالًا شائنًا. ولكنّه انخذال لم يبعث القنوط في نفسها، بل زادها عنادًا، وزاد سعيرًا في النار التي راحت تأكل حشائشها.

* * *

وكانت بعد شهور، ليلة مماثلة جلست فيها ستّوت بالقرب من نافذتها تجاه البيت الكبير. وكانت أفكارها تدور في حلقة مفرغة، والنوم بعيد عن أجفانها بُعد أفكارها عن الموت والدينونة. وكان القمر قد أطلّ من وراء الجبل وأخذ يتوقّل معارج السماء عندما اقتربت سيّارة من البيت الكبير، ولم تلبث أن انقطع هديرها وانطفأت أنوارها. فحبست ستّوت أنفاسها، وأرهفت أذنيها، وفتحت عينيها لعلها تستطيع أن تسمع وتبصر من بعيد ما يجري خلف جدران ذلك البيت الذي كانت تخشاه وتمقته. ولكن من أين لها ذلك والمسافة التي بينها وبينه تزيد على نصف ميل؟

وانتصف الليل وستّوت لا تبرح نافذتها، فلا ترى غير أنوار تضاء وأخرى تطفأ في غرف البيت المقابلة لبيتها. وإذا بأحشائها ترتقص في داخلها، وبدبيب كدبيب النمل يجري في جلدها من أمّ رأسها حتّى أخمصيها، وإذا بها تصرف بأسنانها صريفًا منكرًا. وما هي إلا دقائق حتّى وجدت نفسها تسير، وعصاها بيدها، في اتجاه البيت الكبير. وكانت تردّد بصوت فوق التمتمة: «إذا انطلت حيلة الشقيق على السذّج فلن تنطلي على ستّوت. أنا ستّوت!».

لقد كان عليها أن تنحدر في الوادي الصغير، وأن تسلك شعبًا ضيقًا إلى جانبه الآخر، وأن تتحاشى العلّيق والأدغال عن جانبي ذلك الشعب، وأن تحذر الوقوع في جبّ عميق تصبّ فيه الساقية. لقد كان عليها أن تفعل كلّ ذلك. ولكنّها ما فكّرت قطّ بالمخاطر. ومن ثمّ فقد كان لها من عصاها، ومن ضوء القمر، ومن النار المتأججة في داخلها ما يدفع عنها كلّ خطر.

تسلّلت ستّوت بخفّة مدهشة إلى تحت نافذة مغلقة كان ينبعث من زجاجها ضوء خافت من قنديل كهربائيّ مغطّى بغطاء أزرق. وهناك التصقت بالحائط وهي تكاد لا تشعر أنّها تتنفّس. أمّا قلبها فكان كقلب الخُشف تطارده الذئاب، حتّى إنّها خشيت أن يسمع من في البيت خفقانه.

وأصغت ستّوت بأذنيها وكلّ جوارحها. فما كانت تسمع إلّا تنهّدات، وأصوات قبلات تتخلّلها من حين إلى حين هتافات مخنوقة من نوع: «حبيبي! روحي! حياتي! نور عيني! معبودي!» ثمّ ما لبث أن انطفأ الضوء وساد البيت والجوار سكون عميق.

* * *

«ويقولون إنّه أخوها!... أنا ستّوت ولن يخدعني إنس ولا جن. عرفتك يا خائنة. يا من بغير شرف وناموس. غدًا ساعلمك كيف تطردين الأوادم من بيتك. غدًا تعلمين أنّ ستّوت تاج رأسك يا فاحشة!».

هكذا كانت ستّوت تخاطب نفسها وهي في طريق عودتها إلى البيت. وإذ بلغت حافة الجب في وسط الوادي رفعت عصاها إلى القمر وصاحت: «اشهد يا قمر! ستّوت لا تُقهر!» فما أكملت الكلمة الأخيرة حتّى زلت بها القدم فهوت إلى الجبّ.

وفي اليوم التالي كان أهل الضيعة يفدون أفواجًا على البيت الكبير يهنئون صاحبه بسلامة العودة. بينما كان نفر منهم يشيّع ستّوت إلى مقرّها الأخير!

كسَّار الحصَى

بقيتُ أسبوعين كاملين أسمع ضرب مطرقته على الحجارة تفتّتها حصى لتعبيد طريق يمرّ بالقرب من بيتي. ولأن فتك مطرقته بأعصابي وأفكاري كان أشدّ هولًا منه بالحجارة، فقد رأيت أن أستعيذ بها منها فأصرف أقصى انتباهي إلى وقع ضرباتها على الحجارة لعلّني أجد فيها شيئًا من الموسيقى. ولقد نجحت إلى حد بعيد، فما هي إلّا ساعة وبعض الساعة حتّى استأنست أذني بتلك الضربات بين طويلة وقصيرة، وعالية وخافتة، وسريعة وبطيئة. وأحسستني كمن يصغي إلى سمفونيّة من طراز غريب!

وكان من الطبيعي أن تثير المطرقة فضولي لمعرفة الطارق. فكنت من حين إلى حين أُطل من شبّاكي وأرقبه طويلًا.

أمّا هو فما كان يشعر بوجودي، ولا كان يرفع بصره عن الحجر الذي أمامه والمطرقة التي في يده. بل ما أظنّه كان يشعر بوجود واحد من الناس. ولكن رأيتهم يمرون به وسمعتهم يطرحون عليه السلام أو يطلبون له العافية فلا يردّ ولو بإشارة من حاجب أو بطبطبة من شفة. فكأنّه يتمّم سرًّا من الأسرار التي يقوم بها الكون، فلا يصحّ أن ينقطع عنه ولا لمحة طرف.

كان يبدأُ عمله بُعيد الفجر فلا يتوقّف عنه إلّا عند غروب الشمس، وإلّا لدقائق معدودات يزدرد فيها طعام يومه، وذلك مرّتين في النهار.

وكان يبدأ عمل يومه حيث أنهى عمل أمسه، فيجلس على كومة الحصى باسطًا ساقيه إلى الأمام، ثمّ يأخذ حجرًا ويضعه بين ساقيه وينهال عليه ضربًا بالمطرقة حتّى يتفتت فيأخذ غيره وغيره، وهكذا دواليك إلى أن تؤذن الشمس بالمغيب. وإذا كومة الحصى تمتد من خلفه وتستطيل حتّى يبلغ طولها في النهار الواحد عشرين مترًا ويزيد.

حاولت غير مرّة أن أُبصر وجهه. ولكنّ الكوفيّة الصفراء التي تلفّع بها كانت تحول دون ذلك. إلّا مرّة واحدة رأيته فيها وضع المطرقة جانبًا وانتصب واقفًا بقامته المديدة ثمّ نزع الكوفية عن

رأسه ومسح بها عرقه، وأدار وجهه نحوي من غير أن تقع عينه على عيني. لقد كان من العمالقة وعلى وجهه الأشقر مسحة قويّة من الجمال والرجولة والأنفة والثقة بالنفس. ويقيني أنّه لو أتيح لمثّال ماهر أن يصنع تمثاله لبدا كواحد من آلهة الأساطير.

أخيرًا قادني فضولي إليه. فسلّمت عليه ولكنّه لم يردّ السلام. وحاولت أن أستدرجه إلى الحديث فما هشّ ولا بشّ، وبقي منكبًّا على الحجر أمامه يقرعه بمطرقته قرعًا متوازنًا فيتفتّت بين يديه كأنّه الجوز أو البندق. فارتددت عنه خائبًا ورحت أفتّش عن الخولي المكلّف بالإشراف على تعبيد الطريق، وإذ وجدته سألته:

– ماذا تعرف عن هذا الذي يكسّر الحصى؟ لقد كلّمته فلم يجبني بكلمة. ألعلّه أصمّ أبكم؟

فأجابني: «لا... ما هو بالأطرش ولا بالأخرس. ولكنّه رجل غريب الأطوار، وله حكاية».

قلت: «وما هي حكايته؟»

قال:

– دخل السجن في السابعة والثلاثين وغادره في الخامسة والخمسين. ولولا عفو خاص صدر عنه بعد تدخّل ذوي النفوذ لما غادر زنزانته إلّا محمولًا «على آلة حدباء». فقد كان من المحكوم عليهم بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة.

– إنّه ليبدو كما لو كان ما يزال في الخامسة والثلاثين.

– صحيح. فالذين عرفوه قبل السجن وبعده يشهدون بأنّه ما تغيّر فيه شيء. إنّ بنيته لعجيبة. فكأن عضلاته من حديد. أما تراه لا يستريح من الفجر إلى النجر؟

– ومتى خرج من السجن؟

– منذ ثلاثة أسابيع.

– وهل هو قديم في مهنة تكسير الحجارة؟

– أخذ يتعاطاها منذ أن كان له من العمر خمس عشرة سنة. وبزّ فيها جميع أقرانه. والذي يكسبه في اليوم الواحد يزيد النصف عمّا يكسبه أحسن عامل في هذه المهنة.

– وما هي الجريمة التي اقترفها فعوقب عليها بالسجن المؤبد؟

– قتل ابنته الوحيدة وكان لها من العمر ستّ عشرة سنة.

– قتلها؟!

– نعم. وبالمطرقة التي كان يكسّر بها الحجارة. قضى عليها بضربة واحدة على أم رأسها.

– فظيع... فظيع... ولماذا قتلها؟

– يقال إنّه كان يحبّها حتّى الجنون. وعلى الأخص من بعد أن توفّيت والدتها وتركتها طفلة صغيرة فكان هو لها الأب والأم معًا. لا يطيق أن يهتمّ غيره بأقلّ حاجاتها أو حاجات بيته. وعندما

كبرت واستوفت أنوثتها أخذ يرقب كلّ حركة من حركاتها مخافة أن تحيد شعرة عن جادة الصلاح، فيغويها غاوٍ أو يستهويها شيطان.

– ألعلّها حادت عن جادة الصلاح؟

– ليس من يعرف الحقيقة بالتمام. والشائع أنّه ذات يوم ترك عمله على غير عادته، قبل الظهر، وانطلق إلى البيت ومطرقته في يده. وإذ دخل البيت وجد فيه ابنته وشابًّا من الجيران كان مشهورًا ببذخه وخلاعته. ورأى على معصم ابنته ساعة ذهبيّة وفي أذنيها قرطين من الألماس. وللحال بادرها بضربة من المطرقة على رأسها كانت القاضية عليها. فما كان منه إلّا أن حمل مطرقته المضرجة بيده ومضى توًّا إلى الشرطة وسلّم نفسه واعترف بجريمته. ومن بعدها انقطع عن الكلام ولا يزال.

– أما حاول الدفاع عن نفسه في المحكمة؟

– أبدًا.

– ولا باح لأحد بالسبب الذي حمله على قتل ابنته؟

– أبدًا.

– غريب!

– هنالك بعض النسوة اللواتي يؤكّدن أنّ الفتاة كانت حاملًا.

– أما خطر للسلطة أن تشرّح الجثّة؟

– لم يكن وقتئذ ما يحملها على ذلك.

– غريب... غريب... أكنت تعرفه قبل أن ارتكب جريمته؟

– نعم. كنت أعرفه، فكلانا من قرية واحدة وعمرنا يكاد يكون واحدًا.

– أرأيت تغييرًا في أطواره من بعد خروجه من السجن؟

– أكيد. أكيد. لقد كان قليل الكلام حتّى في شبابه، ولكنّه كان مرح المزاج إلى حدّ ما، وكان يحسن الغناء، وله صوت بديع.

– أكان متديّنًا؟

– كان يُكثر من ذكر اسم الله. ولكنّني ما رأيته مرّة في معبد. وكان عفيف اللسان، فما سمعته مرّة يشتم أو ينطق بكلمة بذيئة.

– وكيف يعيش الآن؟

– كان له بيت ومن حوله فسحة صغيرة من الأرض فيها تينتان كبيرتان وبعض الدوالي. وعندما عاد من الحبس وجد أنّ بيته قد تهدّم. فما حاول إصلاحه. وهو ينام في هذه الأيّام تحت التينة. أمّا في الشتاء فماذا يعمل؟ لست أدري.

– أتظنّه نادمًا على ما فعله؟

– وأنّى لي معرفة ذلك وهو لا يكلّم أحدًا إلّا في ما يختص بعمله؟ لكنّني قرأت في وجهه أشياء ما كانت فيه من قبل.

– مثلًا؟

– مثلًا: في عينيه شرود مزعج. فهو ينظر ولا تدري إلى أين. وقد ينظر إليك فتحسبه ناظرًا إلى أبعد منك بكثير. وفي شفتيه رعشة دائمة كأنّ عليهما ذبابة يحاول طردها فلا تنطرد. وأحيانًا أسمعه يهدر كمن يتوعّد ويهدّد. وما كان يفعل كذلك من قبل. إنّي لأخشى عليه الجنون.

شكرت للرجل جميع ما أفضى به إليّ من معلومات عن كسّار الحصى وانصرفت. وفي المساء قبيل هبوط العتمة، طُرق بابي طرقًا عنيفًا. وإذ فتحته جمدت في مكاني وكاد ينعقل لساني فما كان الطارق غير كسّار الحصى بالذات. وقد جاءني وفي يده الواحدة مطرقته وفي الأخرى دلو من الحديد الصدىء. ومن غير أن يسلّم، قال:

– هل لك أن تملأ لي هذا الدلو ماء ساخنًا؟ أريد أن أغسل الدم عن وجهي ويدي، وعن مطرقتي.

فتأمّلته مليًّا وقلت بمنتهى الدهشة:

– ولكنّني لا أرى أيّ أثر للدم على وجهك ويديك ومطرقتك.

فأجاب بلجاجة:

– بلى... بلى... والحصى التي كسرتها للطريق، هي كذلك مغمّسة بالدم. مطرقتي تنضح دمًا. ومثلها يدي وقلبي. يكاد الدم يعميني. من فضلك قليلًا من الماء الساخن...

ملأت له الدلو كما طلب، فحمله وانصرف. ولفّته الظلمة فما دريت إلى أين حملته رجلاه.

وكان اليوم التالي والأيّام التي تلته فما رأيت فيها أثرًا للرجل على الطريق ولا وقعتُ على من ينقل لي خبرًا عنه. وانتهت أعمال التعبيد فسألت الخولي عن ابن بلدته فأجابني بهزّة من كتفيه أردفها بقوله:

– خسارة! راح يغتسل في البحر ولم يرجع بعد. لقد كان عاملًا ممتازًا هيهات أن أجد بعد اليوم كسّارًا يماثله... خسارة!

أمٌّ وَلَيْسَتْ بأمّ

أن تراها في الساعة التي جئت أحدّثك عنها، لما خامرك أقلّ الريب في أنّ المرأة قد تقمّصها عفريت، بل جيش من العفاريت. فقد كانت تحلج وتجمز من زاوية في البيت إلى زاوية، وقد تفصّد وجهها بالعرق، وتشعّث شعرها، والتهبت عيناها، وبحّ صوتها وهي تصيح: «ها – ها! هاي – هاي! هو – هو!» وكانت تدفع بالطفل الذي على ذراعيها في الهواء لتعود فتتلّقفه بيديها، والطفل يزعق زعقًا موصولًا كأنّ آلاف الإبر راحت تخزّه في جميع مسامّ جسمه، حتّى ليكاد صراخه يقدح السقف. ولم يكن في البيت غيرها وغير الطفل الذي في يديها، وليس له من العمر غير خمسة شهور.

والمعروف عن الخالة مرشا أنّها امرأة هادئة، بطيئة الحركة، عفّة اللسان. وأنّها – وتلك هي ميزتها الكبرى – تكره الأولاد كرهًا عظيمًا فقد كانت عاقرًا، وكانت تفاخر بعقرها، وتحسبه نعمة من الله لا بليّة.

«الأولاد كالخرّوب: درهم من العسل في قنطار من الحطب. والأولاد كالعلق يمتصون دماء والديهم، فلا هم يشبعون ولا الوالدون يسمنون. والأولاد هموم تضاف إلى هموم. والعمر قصير. والناس لن يعيشوا عمرين. فحريّ بالعقلاء أن يعيشوا اعمارهم بأقلّ ما يمكن من الهمّ والغمّ».

هكذا كانت تقول الخالة مرشا. فلا يصدّق قولها أحد من الناس. إذ كانوا يحسبونه ضربًا من الكبرياء الجريح التي تأبَى أن تكشف جراحها للناس.

أو ضربًا من تعزية النفس والتمويه عليها وقد خذلتها الحياة في أعزّ أمنية من أمانيها. والواقع أنّ الخالة مرشا كانت مخلصة في قولها منتهى الإخلاص. فقد جاهرت بعقيدتها هذه قبل زواجها وظلّت أمينة لها حتّى الساعة – وقد جاوزت من عمرها الخمسين.

أما كيف اتّفق للخالة مرشا، وهي على ما علمت من شديد الكره للأولاد، أن تحمل ولدًا وتعدو به من جانب في البيت إلى آخر، فسرّ ذلك في أنّ جارة من جاراتها رجتها أن تحرس طفلها ريثما

تحمل بعض الزاد إلى زوجها الذي كان يعمل في مكان خارج القرية. وقد أكّدت لها حين طلبت إليها ذلك أنّ طفلها قد رضع حتّى الشبع ونام نوم الأبرار. وأنّه لن يستفيق من نومه قبل عودتها حتّى ولو طال غيابها ساعتين أو ثلاث ساعات.

والخالة مرشا – وهو اللقب الذي تُعرف به في القرية كانت تحبّ جارتها الغنيّة وتحبّ زوجها كذلك. فقد أعجبها ما بينهما من تجانس وتآلف وغيرة متفانية كان يبديها كلّ منهما على رفيقه. وكانت تتمنّى لهما الخير من كلّ قلبها. وقد فرحت لفرحهما يوم وُلد لهما بكرهما. لذلك لم تجد عذرًا تتذرّع به للتملّص من المهمّة التي جاءت جارتها تتوسّل إليها أن تقوم بها «إكرامًا لوجه الله» فتقبّلتها على مضض، وعلى أمل أن تصدق الوالدة فلا يستفيق الطفل قبل أن تعود.

إلّا أنّ الطفل، خلافًا لعادته، أو نكاية بالخالة مرشا، أفاق من نومه ولم يمضِ على غياب أمّه أكثر من نصف ساعة. فأرسل في البداية أنّات خافتة، متقطّعة، ما لبثت أن ازدادت سرعة وعلوًّا. فتعوّذت الخالة مرشا من الشيطان، واقتربت من السرير، وراحت تهزّه ببطء في البداية، ثمّ سارعت في هزّه كلّما سارع الطفل في الصراخ، وهي تضرع إلى الله في قلبها أن يسوق الوالدة إلى بيتها على جناح البرق..

كادت الخالة مرشا تقلب السرير بالطفل الذي فيه رأسًا على عقب، وهي تعاقب ربها وتقرّع نفسها أعنف التقريع لوقوعها في ورطة كانت في غنى عنها.

«المجد لاسمك يا ربّي وإلهي. أرحتني من الأولاد لتعود فتبلوني بأولاد غيري؟ سبحانك يا خالقي! لا كان الأولاد ولا كان الذين يلدونهم. ولا كانت ساعة رضيت فيها أن أكون حارسة أولاد!».

ولكنّ عتابها لربها وتقريعها لنفسها ما خفّفا شيئًا من هياجها وهياج الصبيّ، بل زادا في طينها بلّة وضاقت بها الحيل فما تدري أتنتف شعرها، أم تمزّق ثيابها، أم تغنّي أم تولول. فآنًا تنتهر الطفل بأعلى صوتها: «اسكت! لقد صممت أذني بصراخك، وقطّعت أحشائي!» وآونة تصفّق بيديها، وتلبط الأرض برجليها، وتزعق فوق زعق الطفل: «التوبة. التوبة يا ربّي. هي المرّة الأولى والأخيرة. خطيئتكِ كبيرة يا مرشا. لا كانت الساعة التي ولدت فيها!».

وعندما بلغ العياء بها وبالطفل حدًّا لا يطاق اندفعت إلى السرير وانتشلت الطفل وراحت تقذف به في الهواء ثمّ تتلقّفه كما مرّ بك، وهي تعدو من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال فلا يزيدها العدو غير كربة فوق كربة. وقد لاح لها مرّة أن الصبيّ يكاد يختنق، إذ ازرقّ وجهه وشفتاه، وجحظت عيناه، وتراخت مفاصله، وبحّ صوته. فهالها المشهد، ومرّ في بالها ألف فكر أسود. فرأت من الحكمة أن تعيد الطفل إلى سريره كما كان حتّى لا تقع عليها أيّة مسؤوليّة إذا – لا سمح الله – حلّ ما لم يكن في الحسبان.

وكأنّ الطفل، حالما عاد إلى سريره، عاد إلى فراش من القتاد وحسك السعدان. فانتفض بيديه ورجليه وكلّ جسده الطريء، وفتح عينيه الصغيرتين، المقرّحتين بالدمع، وصرخ بملء رئتيه صراخًا اصطكّت له ركبتا الخالة مرشا، وانعقل لسانها فأخذت تتمتم ما لا تفهمه ولا يفهمه ملاك أو شيطان.

وبغتة خطر لها خاطر غريب. فكشفت عن صدرها، وانحنت فوق السرير وناولت الصبيّ ثديًا من ثدييها المتهدّلين، الفارغين. فكانت العجيبة! إذ سكت الصبيّ في الحال وراح يمتص الثدي مصًّا فيه الكثير من الشراهة واللذة والاطمئنان. وما هي غير لحظات حتّى انطفأت النار المتأجّجة في أحشاء الخالة مرشا وحلّت محلّها برودة كلّها أنس وراحة وغبطة. فقد تراءى لها أنّ ثديها الفارغ قد امتلأ فجأة، وأن الصبيّ كان يرضع لبنًا صالحًا لا تعزية موهومة. بل تراءى لها أنّها كانت تبصر رغوة اللبن حول شفتي الطفل، وأنّها كانت تسمع انحداره الهنيء في بلعومه. وأحسّت بأنّ ذلك اللبن كان يتقطّر من كلّ خليّة في جسدها ويجري في كلّ وريد من أوردتها. فكأنّه يسيل من عينيها، ومن أذنيها، ومن كلّ شعرة على رأسها، ومن أعماق قلبها حتّى أخمصيها.

مرّت دقائق والخالة مرشا في نشوة من الغبطة التي ما تذوّقت مثلها في كلّ حياتها. وكانت تتمنّى بكلّ جوارحها لو أنّها لا تنتهي. إلّا أنّ الصبيّ ما عتّم أن تنهّد تنهيدة الراحة والطمأنينة فأغمض عينيه، وأفلت الثدي من بين شفتيه. ثمّ ما لبث أن ابتسم ابتسامة لا توصف وغاص في سُبات عميق.

وعندما عادت الوالدة لم تخبرها الخالة مرشا بما كان. واكتفت بالقول إنّها – أي الوالدة – أطالت غيابها فوق المأمول والمعقول. ثمّ أردفت – ولكن لا بأس. فأنت زوجة فتيّة. تحبين زوجك وهو يحبّك. فكان لا بدّ من المكوث معه حصّة من الزمن. أمّا الزغلول – بارك الله في قلبه – فملاك وخير من ملاك. فأجابت الوالدة ببهجة واعتزاز:

– أما قلت لك إنّه ولد هادئ، وإنّه لن يفيق قبل أن أعود؟ إنّي أشكر الله على أن الزغلول لم يسبّب لك أقلّ انزعاج.

– لا. لا. هذا الملاك الحبيب يسبّب انزعاجًا؟ معاذ الله!

وكان فيما بعد أن كلّفت الجارة الخالةَ مرشا أن تقوم على حراسة طفلها مرّات عدة. فكانت في كلّ مرّة تقبل المهمة بمنتهى الرضا محاولة أن تكتم شوقها اللاهب إلى القيام بها. وكان من نتيجة هذه الحراسة أنّ الزغلول ألف صوت الخالة مرشا وصورتها وثديها إلى حدّ أنّه بات يستأنس بها أكثر من استئناسه بأمّه. وكانت الخالة مرشا تحرص أشدّ الحرص على أن لا تباغتها الأم، أو أيُّ بشر، وهي تُرضع الصبيّ. فقد باتت تشعر أنّ ذلك السر هو سرّها وحدها، وأنّه، إذا افتضح أمره، طارت تلك الغبطة من قلبها إلى غير رجعة.

وثمّة شعور آخر أخذ يستحوذ على الخالة مرشا وعبثًا كانت تحاول مقاومته. وهو الشعور بالغيرة على الصبيّ من أمّه. فقد باتت تتمنّى لو يكون الزغلول لها وحدها، تهدهده، وتناغيه، وتغنّيه أغاني ما صنعتها بعدُ أمٌّ لولد، وترضعه ساعة تشاء وعلى مرأى من الناس أجمعين، وتضجعه على زندها وتضمّه إلى صدرها ساعة تستسلم للنوم، فما بقيت تطيق الابتعاد عنه. وخشيت أن تبرم الأم بزياراتها لمناسبة ولغير مناسبة. فراحت تختلق لها الحيل لتتغيّب عن البيت وتكلّفها حراسة الطفل، أو لتسمح لها بأخذه إلى بيتها حصّة من النهار.

ذات يوم، إذ كانت الخالة مرشا في بيتها تطبخ عشاء لها ولزوجها، سمعت الزغلول يزعق زعقًا منكرًا. فهرولت في الحال إليه تاركة قدرها تغلي على النار. وإذ أدركته وحاولت أن ترفعه من سريره انتهرتها الوالدة بشيء من البرودة والخشونة:

– دعيه يبكي. ليبكِ حتّى تنخطف أنفاسه. لقد ضاق صدري به وببكائه من بعد أن أفسدتِ عليّ تربيته لكثرة ما «تدلّعينه». دعيه يموت.

– ويحي! الزغلول يموت؟! كيف يتحرّك لسانك بمثل هذا الكلام يا ابنتي؟ ليت الموت يجرفني قبل أن يصاب الزغلول في شعرة من شعر رأسه. سامحك الله!

– سامحني الله أم لم يسامحني. ذلك أمر يعنيني وحدي. والزغلول ولدي. ولدي أنا. أفهمت؟ وأنا حرّة في أن أربّيه على ذوقي.

قالت الأمّ ذلك بنبرة حادّة، قاسية، وأدارت ظهرها لجارتها، وطفلها ما برح يزعق ويتلوى في سريره.

عندئذ أدركت الخالة مرشا أنّ بقاءها في بيت جارتها بات أمرًا غير مرغوب فيه. فعادت أدراجها من غير أن تجيب بكلمة، وقد أحسّت انقباضًا شديدًا في قلبها كأنّ أصابع من حديد كانت تضغط عليه بقوّة هائلة. وعندما جاء زوجها في المساء يطلب عشاء وجدها في فراشها ووجد القدر التي كانت على الموقد مكسوّة بالرغوة. لقد فار ما كان فيها وأطفأ النار قبل أن ينضج منه شيء. وإذ سأل زوجته عمّا بها وعن عشائه لم يلقَ أيّ جواب.

بعد يومين حلّت الفاجعة. لقد كان الوقت نحو الظهر. وإذا بعويل ولا عويل الجن يطرق أذني الخالة مرشا، وكانت لا تزال ملازمة فراشها. فاستوت جالسة وراحت تصغي بكلّ جارحة من جوارحها. وأيقنت أن العويل ينطلق من بيت جارتها الفتيّة. وانحدر قلبها إلى أخمصيها عندما سمعت جارتها تولول وتستغيث: «دخيلكم! دخيلكم ولدي ولدي!».

لقد مات الزغلول. ما في ذلك شك. مات وهي بعيدة عنه. ولعلّها لو كانت قريبة منه، وتسنّى لها أن تضمّه إلى صدرها، وأن تلقمه ثديها، وأن تغنّيه بعض الأغاني التي صنّفتها له لما مات. لقد كان مريضًا يوم كان يزعق ذلك الزعق المنكر فكانت أمّه تحسب زعقه ضربًا من «الدلاعة». ألا

تبًّا لها كيف أنّها تأثّرت في ذلك اليوم بما أبدته الأمّ من جفاء نحوها فانقطعت عن زيارتها! ألا تبًّا لتلك الأمّ الرعناء التي سبّبت تلك القطيعة!

وحاولت الخالة مرشا أن تنهض من فراشها فلم تطاوعها رجلاها. وحاولت أن تصرخ فخانها صوتها.

ومرّ الزمان بأصابعه السحريّة على قلب الوالدة فبلسم جراحه، إذ عوّضها عن الزغلول زغلولًا آخر.

أما الخالة مرشا فما تزال حتّى اليوم حبيسة البيت، تجري من جانب فيه إلى جانب، وإلى صدرها وسادة تضمّها بحنان لا يوصف، وهي تصيح بأعلى صوتها:

«ها – ها! هاي – هاي! هو – هو! يقبرني الزغلول – يق... بر... ني!!».

عابر سَبيل

في الصباح الباكر سمعتْ ربّة البيت ابنتها تناديها بصوت فيه الكثير من اللهفة واللجاجة. فخفق قلبها هلعًا من مفاجأة مكدّرة. وهرولت إلى غرفة ابنتها، فألفتها جالسة في سريرها وفي يدها قلم ودفتر للرسم. وقد كانت تعرف شغفها بالرسم من بعد أن أقعدها الشلل عن الحركة منذ سبع سنوات. وها هي اليوم في السابعة عشرة ورجلاها لا تقويان على المشي. أمّا ما بقي من جسمها ففي حالة سويّة!

سُرِّي عن الوالدة عندما أيقنت أنّ طارئًا غير مستحبّ لم يطرأ على ابنتها. ولكنّها عجبت لها تستفيق من نومها في مثل تلك الساعة المبكرّة وتنكبّ على الرسم قبل أن تغسل وجهها، وقبل أن تتناول شيئًا من الطعام جريًا على عادتها في صباح كلّ يوم.

– ماما! ماما! هذه أجمل صورة رسمتها حتّى الآن... اقتربي. اقتربي وتأمّلي هذا الوجه.

وأشرقت أسارير الصبية بنور لطيف ناعم، وهي ترفع الدفتر الذي في يدها لتمكّن والدتها من النظر جيدًا إلى الصورة التي فيه.

– أتصدّقين يا ماما أنّني أنهيتها في أقلّ من ربع ساعة؟ أمر عجيب. كنت أرسمها وأشعر أنّ القلم في يدي تحرّكه يد غير يدي. تأمّليها مليًّا. أرأيت في حياتك أجمل أو أنبل من هذا الوجه؟

صعقت الوالدة عندما وقع بصرها على الصورة، وجحظت عيناها، فما انفرجت شفتاها إلّا عن دهشة بالغة.

– ما بالك يا ماما لا تقولين شيئًا؟ ألعلّك لا ترين في الصورة مثل ما أرى؟

– دعيني أسترجع أنفاسي يا ابنتي... لقد غلبتني الدهشة.

– بماذا يا ماما؟

– إنها صورته.

– صورة مَن يا ماما؟ ألعلّك تعرفينه؟

– صورة عابر السبيل الذي جاءنا أمس يطلب مأوى فما آويناه.
– أتعنين أنّه هو بعينه، كان هنا... في بيتنا؟!
– لم يسمح له والدك بالدخول. فلم يجتز العتبة.
– لم يسمح له؟! آه من بابا ما أقسى قلبه وأنت... ماذا كان موقفك؟
– موقف والدك. فما كان لنا أن نفعل غير ذلك.
– ولماذا؟
– لأنّنا، يا ابنتي، نعيش وحدنا هنا في وسط هذه الغابة الشاسعة. فمن الحكمة أن نتحفّظ كثيرًا، فلا نقبل في بيتنا غريبًا لا نعرف عنه شيئًا. ومن ثمّ فقد رأينا في ثيابه الرثّة وفي وجهه الشاحب ما يدعو إلى الحذر.
– ومتى جاءكما هذا الغريب؟ وعلامَ لم تخبراني عنه؟
– جاءنا أمس في ساعة متأخّرة. ولم نخبرك بأمره لأنّك كنتِ نائمة.
– وماذا قال عندما جاء وعندما ذهب؟
– لست أذكر يا ابنتي. وأذكر أنّه طلب أن ينام عندنا ليلته – ولو في الإسطبل – فلم نجبه إلى طلبه.
– وإلى أين ذهب من هنا، وفي الليل، وفي غابة كهذه الغابة؟
– مَن يدري؟
– يا لقلبيكما ما أقساهما!... أمثل هذا الزائر الكريم لا يجد عندكما مأوى؟

* * *

وبغتة ألقت الصبيّة الدفتر من يدها على اللحاف، وأكبّت بوجهها على وسادتها، ثم طفقت تنشج نشيج رضيع جائع انتُزع الثدي من فمه. فاضطربت الوالدة أيّما اضطراب، وانحنت فوق ابنتها، وأخذت رأسها بيديها، وراحت تكفكف دموعها بشفتيها، وتستفسرها عما بها فلا تلقى جوابًا غير دموع جديدة تفيض بغير انقطاع. وعندما أعياها الأمر فطنت إلى الدفتر الذي فيه الصورة، فرفعته عن اللحاف وقالت:

– حلّفتك يا ابنتي بهذه الصورة العزيزة عليك أن تخبريني ما بك، ومَن أوحى إليك هذه الصورة. إنّني أكاد لا أصدّق أنّك رسمتها في هذا الصباح، وفي أقلّ من ربع ساعة، ومن غير أن تقع عينك على الرجل. إنّه لسرّ عجيب.

فعلتْ هذه الكلمات فعل السحر في الصبيّة... فما هي إلا دقيقة حتّى عادت فاستوت جالسة في سريرها، وردّت شعرها الأسود عن جبينها، ومسحت عينيها الواسعتين بمنديلها، ومرّت بأناملها الدقيقة على وجهها المستطيل وقد امتشجت سمرته اللطيفة بدفقة من الدم القاني. ثمّ تناولت الصورة

وأخذت تحدّق إليها بحنان كأنّها تتفحّص كلّ خطّ من خطوطها وكلّ ظلّ ونور من ظلالها وأنوارها. وطغت على وجهها ابتسامة عذبة عندما رفعت عينيها إلى والدتها، وقالت:

– لعلّه، من بعد أن أوصدتما الباب في وجهه، وجد شبّاكي مفتوحًا فآثر أن يمضي ليلته معي. لقد كنتُ كلّ الليلِ في رفقته.

– ماذا تقولين يا ابنتي؟! هل أنت تهذين، أم أنت تمزحين؟

– لا أهذي ولا أمزح. بل إنّني – كما قلت لكِ – قد أمضيت الليل بكامله في رفقته. أو أنّه هكذا تراءى لي.

– يا للفظاعة! لست أصدّق. ومن أين دخل؟

– هدّئي من روعك يا ماما. ما كنت أظنّك بسيطة إلى هذا الحدّ. لقد زارني الرجل في المنام.

– آه! في المنام؟

– نعم. في المنام. ويا ليت منامي لم ينته.

– ومن ذلك المنام هذه الصورة؟

– نعم من ذلك المنام.

– لو كنت أجهلك لما صدّقتك. إنّها صورته بالتمام. عجيب... عجيب... وماذا قال لك في المنام؟

– أشياء كثيرة لست أذكر منها غير قوله: «ستبرئين من علّتك يوم يبرأ والداك من علّتهما». قالها عند الوداع. وعلى الأثر أفقت من نومي وأنا أردّد قوله. ثمّ أخذت قلمي وطفقت أرسم صورته العالقة بين أجفاني. فكانت النتيجة ما ترين.

– شيء مدهش. شيء عجيب. شيء لا أفهم منه شيئًا. وماذا يعني بعلّة والدك وعلّتي، ونحن من كرم الله نتمتّع بصحّة ممتازة؟

– لست أدري.

– ويا ليتني كنت أدري... إذًا لعادت إليك العافية في الحال. فعلّتي وعلّة والدك الوحيدة يا ابنتي هي علّتك. وأنتِ تعرفين أنّنا لا نبخل بالحياة في سبيلك، لو كنّا نعلم أنّ في استطاعتنا أن نفدي صحّتك بحياتنا.

– ألا تذكرين القول القديم يا ماما: «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»؟ لعلّه يعني ذلك.

قالت الابنة ذلك وعضّت على شفتها السفلى بشدّة كأنّها ندمت على ما قالت. ثمّ أغمضت عينيها، وأخذت رأسها بكلتا يديها. وانقطعت عن الكلام. وعبثًا حاولت أمّها فيما بعد أن تستدرجها ولو بقول «نعم» أو «لا».

* * *

تقلّص النهار والابنة معتصمة بالصمت، وفي يدها الصورة تحدّق إليها طويلًا فلا يرفّ لها جفن. فآنًا تبعدها وآونة تدنيها. أو تأخذ القلم وتهمّ بتغيير خط أو تخفيف ظلّ فيها فتجمد يدها. وفي دماغها تدور كلمات الرجل التي تلفّظ بها في المنام، فتحاول عبثًا فهم ما تعنيه. ولا تنفكّ تجهد نفسها حتّى يدور رأسها من الإجهاد ويغيم بصرها، ويتملّكها الشعور بأنها تفتّش عن ذرّة من التبر في طود من التراب. ونسيت أنّها من لحم ودم، فلا يقلقها جوع أو عطش، ولا هي تحسّ أقلّ حاجة إلى النوم. لقد استحوذت الصورة على جميع مشاعرها، وخُيّل إليها أنّ بين شفتي تلك الصورة الكلمة السحريّة التي تستطيع شفاءها من علّتها، لو كان لها أن تحملها على النطق. ولكن أنّى لها ذلك والصورة صورة لا أكثر؟ أما من سبيل إلى العثور على ذلك الغريب؟ ليرسلْ والدها أحد رجاله للتفتيش عنه، فلعلّه لم يبرح الغابة بعد. وليأتوها به فتعتذر له عن جفاء والديها. وحسبها أن تبصر في اليقظة وجهه الجميل وتسمع صوته المؤنس. ولا همّ لها بعد ذلك أبرئت من علّتها أم لم تبرأ!

* * *

أفضت الابنة برغبتها إلى والديها فقابلاها بالسخرية، وعلى الأخص والدها الذي ابتسم ابتسامة صفراويّة، وقال إنّه مهما تكن محبّته لابنته الوحيدة فلن يضحّي في سبيلها بعزته وكرامته، ولن يبلغ به السخف إلى حدّ أن يرسل رجاله في الليل ليبحثوا عن صعلوك متشرّد، ويأتوا به إليه ليعتذر له عمّا بدر منه في الليلة الفائتة. فكأنّه ليس السيّد المطلق في بيته يفتح أبوابه لمن يشاء ويوصدها في وجه من يشاء. على أنّه لو عرف أن طبيبًا في أقاصي الأرض يستطيع أن يشفي ابنته من شللها، لطار إليه في الحال ولما بخل عليه بكلّ ما يملك. حتّى بحياته. فهزّت الأمّ رأسها ثلاثًا، علامة الموافقة على ما تفوّه به زوجها.

مرّ أسبوعان طويلان والابنة لا تذوق الطعام والشراب إلّا لمامًا، ولا تنطق بأكثر من «نعم» و«لا». واتسعت الشقّة ما بينها وبين والديها. فباتت وكأنّها غريبة عنهما وعن كلّ ما في البيت ما خلا صورة عابر السبيل. فما كانت تفارقها إلّا ساعة يتغلّب عليها النوم. وآلم الوالدة أشدّ الألم أن ترى ابنتها تذوب أمام عينيها ذوبان الشمعة المضاءة، فقالت لزوجها:

«إنّ ابنتنا تتلاشى يومًا بعد يوم».

فأجابها مطرقًا:

«وماذا تريدين منّي أن أفعل؟ أأشقّ ثيابي؟ أأرشق ربّي بالحجارة؟»

– لعلها على حقّ.

– في ماذا؟

– في أمر عابر السبيل.

– أتعنين أنّها على حقّ في طلبها إليّ بأن أرسل رجالي للتفتيش عن ذلك الصعلوك؟ أتريدين منّي – أنتِ كذلك – أن أجعل نفسي سخرية لنفسي وللناس؟

– أما ترى كيف أنّها رسمت صورته من غير أن تراه؟ أما ترى عظيم تعلّقها بتلك الصورة؟ لعلّ في ذلك سرًّا نجهله.

– بل السرّ في أنّ ابنتنا عنيدة، متهوّسة، وأنّها تريد أن تذلّ كبرياءنا لعنادها وهوسها.

– لا بأس لو كسرنا من كبريائنا. ولا بأس لو سخرنا بأنفسنا أو سخر بنا الناس. ولا بأس لو استرضينا آخر صعلوك في الأرض إذا كان لنا من ذلك أن نبقي على حياة ابنتنا. فأنا وإن كنت لا أتوقّع لها الشفاء، لا أطيق الحياة بدونها. لتكن مشلولة. لتكن مخلّعة. لتكن مجنونة. لتكن عمياء وخرساء وصمّاء. لتكن جيفة تتنفّس. إنّي أريدها أن تتنفّس ما دام في صدري نفس.

وترقرقت دموع الوالدة على خدّيها حارة، غزيرة، فبكى الوالد لبكائها، وفجأة وثب عن كرسيّه وصاح:

– لن يذهب للتفتيش عن عابر السبيل غيري.

بعد دقائق كان الوالد يسرج بيده جواده الأحبّ إلى قلبه. فاهتزت الوالدة فرحًا وأسرعت إلى ابنتها لتزفّ إليها البشرى. وما إن فتحت الباب حتّى تسمّرت مكانها، وانعقل لسانها، وأحسّت كأنّ قلبها يهبط إلى أخمصيها. لقد وجدت ابنتها واقفة أمام المرآة تسرّح شعرها، وسمعتها تغنّي بصوت خافت:

– يا عابر السبيل عدْ من هنا.

عَدُوُّ النِسَاء

جاءني أمس أحد الأصحاب فبادرني، بدل التحيّة، بسؤال حسبته ضربًا من الدعابة... قال:

– ماذا تعرف عن تأبّط شرًّا؟

فأجبته ساخرًا:

– ومتى عهدتني من المغرمين بالشعراء الصعاليك؟... سل الذين هم أرسخ منّي قدمًا في الجاهليّة.

فردّ، وكان في ردّه شيء من التأنيب:

– لست أسألك عن قاتل الغول. وأسألك عن آكل الفول. عن شاعر يعاصرك وتعاصره، ويعرفك وتعرفه.

قلت وقد انقشعت الغمامة عن عيني:

– أتعني صاحبنا عدوّ النساء؟

فأجاب مؤكدًا:

– إيّاه أعني.

وصاحبنا رجل اشتهر بأمور ثلاثة: بنظم الشعر يرتجله في شتّى المناسبات، وبمحبّته للفول، وبعداوته للنساء... فقد التهم من الفول في حياته مقادير تكفي لعلف عدّة بقرات شهورًا وشهورًا. وما ضاع عليه العلف. وشاهِدُ ذلك جثّة ضخمة يتقدّمها بطن عظيم إذا مشت، ويبرز بعيدًا إذا جلست. والرجل اليوم في السادسة والسبعين من عمره، يحمل لبدة كثيفة من الشعر الأبيض، ويباهي بقوّة ولا قوّة وحيد القرن. وهو يعيش وحده، وليس مَن يدري كيف يعيش. وله مجلس يتسابق إليه الناس. فسرعة خاطر عجيبة في النظم، ونكتة حاضرة أبدًا، وضحكة مدوّية، وخفّة في الظلّ، وعفّة في اللسان، وكرم في الكفّ. فكأنّه ما عرف الهمّ ولا عرفه الهمّ.

ولسبب شاء صاحبنا أن يتكنّى بكنية صعلوك الجاهليّة الأشهر «تأبّط شرًّا»... فإذا سئل في ذلك أجاب: «إنّي أكره الشرّ. ولكنّني أتأبّطه ضدّ بنات حوّاء».

أمّا من أين كرهه لبنات حوّاء، فسِرّ ما باح به الشاعر لأحد.

قلتُ لصاحبي الذي جاء يسألني عنه:

– وماذا تتوقّع منّي أن أعرف عن الرجل فوق ما تعرف أو يعرف غيرنا من الذين اتصلوا به؟

– إنّي، من بعد أن رأيت اليوم منه ما رأيت، بتّ أعتقد أنّه من أكبر المضلّلين.

– سامحك الله... بل إنّ «تأبّط شرًّا» من أصدق الصادقين على الإطلاق. وماذا رأيت منه اليوم فحملك على اتهامه بالتضليل؟

– رأيته ينتحب انتحاب الطفل الجائع وقد حيل بينه وبين الثدي. أوَتدري لماذا؟

– قل ما دمت تعرف.

– لأنّه زوّج ابنته!...

وشدّ صاحبي على الكلمتين الأخيرتين لعلمه أنّ وقعهما عليّ سيكون كوقع الصاعقة تنقضّ من سماء صافية. فقد كنت واثقًا منتهى الثقة من أنّ صاحبنا الشاعر لم يتّخذ في حياته زوجة أو خليلة. فمن أين تكون له الابنة ليزوّجها؟ ألعلّ صاحبنا يمزح؟

– أتمزح يا هذا؟ ما هكذا يكون المزح!

قلتها وبي أمل ضئيل أن يفترّ ثغر صاحبي عن بسمة شيطانيّة. ولكنّه لم يبتسم، بل قال ببرودة وحزم:

– إن لم تصدّقني فاذهب إليه بنفسك.

ووقعت نصيحته منّي موقع القبول من بعد أن أيقنت أنّه كان جادًّا في قوله غاية الجدّ.

انطلقت إلى «تأبّط شرًّا»... وعندما دخلت عليه، ألفيته جالسًا إلى منضدة تكدّست عليها أوراق كثيرة، ورأسه المنفوش الشعر بين كفّيه، والدموع تترقرق على وجنتيه فتنحدر إلى أنفه وشاربيه. أمّا فمه فكان في شكل قوس مشدودة القابين. وأمّا جثّته الضخمة فكانت تختلج كأن قد مسّها سلك مكهرب.

حيّيته فما ردّ التحيّة. واكتفى بان كفكف دموعه وتنهّد من غير أن يرفع بصره إليّ، فتملّكتني الحيرة وما بقيت أعرف ماذا أفعل أو أقول. بل إنّي وجدت الكلام في مثل تلك الحال ضربًا من البلاهة. فجلست قريبًا منه ولذت بالصمت.

مرّت دقائق وجوّ الغرفة يزداد كثافة وثقلًا. وشقّ عليّ أن أرى الرجل يتألّم فلا أستطيع أن أخفّف من ألمه، ولا أن أحمله على البوح بما به. ورحت أفكّر في الانصراف عندما اعتدل صاحبي في كرسيّه، وانتفض كمن يستغيث من كابوس، وردَّ شعره عن جبهته بكلتا يديه، وفرك عينيه فركًا

شديدًا، ثمّ مسح أنفه بمنديله، وأطلق قهقهة عالية ارتجّت لها جدران الغرفة مثلما ارتجّت أعصابي. فكدت، لشدة انذهالي، أقفز عن الكرسيّ. ولم يفسح لي المجال لإبداء دهشتي أو لإلقاء سؤال، إذ صاح بأعلى صوته:

– هذا هو الجنون بعينه. لقد جنّ «تأبّط شرًّا»: جنّ إلى حين. والآن عاد إليه رشده. ويا ليته لم يعد.

تظاهرت بالبرودة واللامبالاة، كأنّ ما رأيته وسمعته لم يكن من الغرابة في شيء. وقلت، ولا أدري لماذا قلت:

– لعل الجنون هو الرشد بعينه. أمّا العقل فقد لا يكون غير ضرب من الخبل.

– ولكنّ جنون اليوم هو جنون الجنون.

وراح صاحبي يقهقه من جديد، ويفرك عينيه تارة، وشعره أخرى. وبغتة طار الضحك من عينيه، وبدا الجدّ في جميع قسمات وجهه، فتنحنح والتفت إليّ وأردف بصوت متّزن منخفض:

– اسمع. مرّ في هذا الصباح من أمام بيتي موكب عرس ووقعت عيني على العروس، فكان ما كان.

– وماذا كان؟

– كان ما لست أستطيع وصفه أو تحليله. كان أن تخيّلت ما في قلب تلك العروس من فرح وغمّ في آن معًا. أمّا الفرح فلأنّها ستبني لها عشًّا جديدًا برفقة الشاب الذي اختارته واختارها وأرجو أن يكون الاثنان قد أحسنا الاختيار. وأمَّا الغمّ فلفراق العشّ الذي احتضنها منذ أن قذفتها أمّها إلى العالم وحتّى صباح اليوم.

– حقًّا إنّه لمشهد غريب ما رأى الناس مثله منذ أن كُوّرت الأرض وكان الناس!

وأحسّ صاحبي التهكّم في صوتي، فضرب كفًّا بكفّ وعقد أصابع يديه بحركة عصبيّة، وأجاب بنبرة حادة:

– أعرف أنّ الأرض تشهد الآلاف مثله في كلّ يوم. فما هو بالأمر الغريب. وكان من الواجب أن يكون في منتهى الغرابة لو شعر الناس بمثل ما شعرت. أو لو خُيّل اليهم عند مرآه مثل ما خُيّل إليّ.

– وماذا خُيّل إليك؟

– ما أدري كيف تملّكني الشعور بأنّ العروس هي ابنتي – ابنتي أنا – وأنّها وحيدتي. وقد جاء من يأخذها منّي – من العشّ الذي ربّيتها فيه – ليكون بعلها وتكون بعلته. فتنسلخ عنّي وأنسلخ عنها. كأنّني ما أطعمتها من قلبي، ولا هي أطعمتني من قلبها، وكأنّ هذا البيت ما اندغم بكيانها ولا

هي اندغمت بكيانه. قل ما شئت يا صاحبي. إنّه لأمر فظيع – فظيع جدًّا – عند والد رقيق القلب، شارد الخيال مثلي.

ضحكت من قوله «والد»... إذ كنت أعلم حقّ العلم أنّه لم يتزوّج في حياته، ولا تذوّق طعم الأبوّة بطريقة شرعيّة أو غير شرعيّة، فغاظه ضحكي وآلمه، حتّى كاد يقرض شفته السفلى من شدّة غيظه. إلّا أنّه تمالك نفسه وهزّني من كتفي مؤنبًا...

– تضحك من قولي إنّي والد، ولا ولد لي. إذن قل لي – فسّر لي – أفهمني من أين جاءني الشعور بأنّي والد تلك العروس، وما رأيتها قطّ في حياتي إلّا صباح اليوم؟ إنّها ابنتي سَيْسَبان – ذلك هو اسمها.

– أما قلت إنّك ذو خيال شارد؟ لقد شرد بك خيالك بعيدًا هذه المرّة.

– أيشرد بي إلى حدّ أن ينفرط فؤادي دموعًا من عينيَّ، وتكاد تخنقني الغصّة في حلقي؟ أشرفت على الموت يا صاحبي. نعم. أشرفت على الاختناق. وهذه الرسالة التي يَبُست يدي وحَزِن قلمي فما استطعت أن أكملها... هذه الرسالة هي خير شاهد على ما أقول.

– وأيّة رسالة تعني؟

– هذه! خذها واقرأها. اقرأها بصوت عال، لعلّني أسمع وأعي ما كتبت عن غير وعي منّي.

وناولني ورقة من الأوراق المبعثرة على المنضدة مكتوبة بخطّه. وعهدي بخطّه أنّه صريح وجميل. أمّا في هذه الورقة فقد كان في منتهى التعقيد والاضطراب. فكأنّ يده كانت تسابق فكره.

وإليك ما قرأت:

«سَيْسَبان، يا ابنتي سَيْسَبان! بيتي من بعدك، يا بنيّتي، ليس بيتي. إنّه وجار ضبع، بل جحر ضبّ. كلّ ما فيه باقٍ على ما كان يوم كنت فيه. ولكنّه غير ما كان. إنّه قاحل، يابس، عابس، بخيل، دميم. وكان يعجّ بالخصب والخضرة والبسمات والجود والجمال. كان يبش للمكنسة والخرقة في يديك، ويتوهّج بالنور المتدفّق من عينيك، ويطمئنّ لوطء قدميك.

«كان بيتي قفير نحل... وكنت فيه المليكة المكرَّمة، المطاعة. وكان لكلّ حلم من احلامي جناحان وطنين أين من عذوبته أناشيد الملائكة؟ وكانت أحلامي في حركة دائمة. وكانت الحركة بركة. فأقراص عجيبة بنخاريب عجيبة، بعضها يفيض شهدًا، وبعضها يحتضن أحلامًا ما نبتت أجنحتها بعد، وبعضها ينغلق على أحلام ما برحت بذورًا. وكلّها منك، منك يا مليكتي.

«أمّا من بعد أن أقفر القفير منك، فقد أقفر من كلّ حركة وبركة... فلا رفة جناح، ولا رجع طنين، ولا حلاوة شهد، ولا شذا زهرة، ولا بذار أحلام جديدة. لقد غفا النحل على الأقراص ولن يستفيق، وبات القفير كلّه مباءة للعثّ والعفن، وغنيمة للنمل والفأر.

«وأنا من بعدك، يا بنيّتي، غير أنا. لقد كنت معك في السادسة والسبعين وكأنّني في السادسة والعشرين. بل كنت كمن عمره عمر النور. وله من النور صفاؤه ورواؤه. فما مرّت أناملك بشعري، ولا لمست كفّك خدّي، ولا ارتسمت بسمتك في عيني، ولا رنّ صوتك في أذني، ولا سقيتني جرعة ماء، أو قدّمت لي لقمة غذاء إلّا بعثت في جسدي وروحي حرارة حياة تتجدّد تجدد الأسحار والأغساق، وتنبسط على مدى الآفاق.

«إنّ ما بان منّي للناس، يا بنيّتي، هو غير ما كشفته أنت منّي لنفسي، والذي بان منّي هو جثّة ساحقة بثقلها وبشاعة تكوينها. ثمّ لسان ذرب، مستهتر، متهتّك، يحسن النكتة وإثارة الضحك. ثمّ احتيال بارع في رصف ما يدعونه شعرًا. أمّا الذي كشفته أنت فقلْبٌ يسع الأرض والسماء وما بينهما من فضاء، وكيف ذلك؟ لأنّك اهتديت إلى ما فيه من ينابيع المحبّة، ففجرتها دافقة، صافية. وهذه الينابيع قد غارت الآن، يا بنيّتي، من بعد أن غاب وجهك عنها، وانقطعت جرارك عن ارتيادها. غارت... غارت... غارت...

«ومن أنا من بعدك، يا بنيّتي؟ ست وسبعون سنة ملتفّة بعباءة بالية وفي زاوية خالية من بيت مقرور، مظلم مهجور...».

بلغت هذا الحد من الرسالة فتوقّفت لأن ما تبقّى منها قد محته الدموع. وما إن توقّفت عن القراءة حتّى سمعت نشيجًا يتعالى شيئًا فشيئًا. وإذا بالجثّة التي أمامي ترتجف ارتجاف القصبة في الريح. فنهضت إليه وأخذت رأسه بين يديّ، وهززته بعنف وقلت:

– عيب على الستّ والسبعين تنتحب انتحاب الأطفال. وعلى ماذا؟ على وهم... على خيال.

فلم يجبني في الحال، ولا انقطع عن النشيج، ولكنّه بعد حين التفت إليّ متوسلًا وقال بصوت لم أكد أسمعه:

– رجوتك يا صاحبي... رجوتك بكلّ مقدّس لديك.. انصرف عنّي. دعني مع وهمي وخيالي.

فامتثلت صاغرًا وانصرفت.

عصْفُورٌ وَإنسَان

هزّت الجريمة القرية من أوّلها إلى آخرها، ومن أكبرها حتّى أصغرها. فالقتيل شاب من خيرة شبانها ووحيد أمّه وأبيه. والقاتل ولد في الثالثة عشرة من عمره. والرابع بين ثلاثة إخوة وأخت. ووالده من أعيان القرية نسبًا وغنى ونفوذًا وطيب أُحدوثة.

إلّا أنّ الذين عرفوا القاتل عن كثب راحوا يتحدّثون عن فعلته النكراء كما لو أنّها لم تدهشهم البتّة. فكأنّهم كانوا يتوقّعونها.

– أتذكر يا أبا عسّاف ما قلته لك منذ عام تقريبًا؟ ألم أقل إنّ هذا الشقيّ سينتهي بارتكاب جريمة فظيعة؟ وها هو قد ارتكبها!

هكذا كان أبو عزيز يخاطب جاره. فيجيبه جاره:

– وأنا... أما قلت لك يا أبا عزيز إنّه سيكون السبب في خراب والديه؟ خسارة. إنّهم أناس طيّبون!

وتقول أمّ فارس لأمّ شديد:

– هذا الولد كان نحسًا لوالديه منذ ولادته. ألا تذكرين أنّ خير بقرة من بقراتهما فطست في الساعة التي أطلّ فيها من بطن أمّه؟

فتزكّي أمّ شديد شهادة جارتها بقولها:

– بلى... لى... وأنا كذلك تنبّأت من زمان أنّ هذا الولد سيجلب كلّ أصناف البلايا لوالديه وللقرية. إنّ الأرض تئنّ من شيطناته.

وتنتهي الجارتان بالتفجّع على القتيل وشبابه ووالديه، وبالتقسّي على القاتل ولوم أبيه وأمّه لأنّهما لم يحسنا تأديبه.

والواقع أنّ صبحي ولد ولا كالأولاد. فهو يكاد يكون فلتة من فلتات الطبيعة. إذا وقعت عينك عليه أيقنت في الحال أنّك أمام فرخ مصارع أو ملاكم، وأمام أحجية يصعب عليك حلّها. فآنًا يبدو

لك الصبيّ كما لو كان ملاكًا في زيّ إنسان. وآونة كما لو كان عفريتًا من عفاريت سيّدنا سليمان: رقبة قصيرة وغليظة. منكبان عريضان. ساعدان مفتولان. صدر مقعنسس. فخذان إذا جسستهما حسبتهما من المطاط الصلب. كفّان سمينتان وأصابع قصيرة اختفت عقدها تحت طبقة كثيفة من اللحم والعضل. إذا وقف وفرشخ صعب على اثنين من أترابه أن يزحزحاه من مكانه. وقد حاول الكثير ممّن يفوقونه سنًّا أن يرموه إلى الأرض فباءوا بالفشل.

لعلّ أغرب ما في صبحي شكل رأسه. فهو أشبه ما يكون بالكوز المقلوب، وقد غطته لبدة من الشعر الفاحم الواقف كالمسلات. فكأنّه ريش القنفذ، تأبَى الشعرة منه أن تلتصق بجارتها، أو أن تتعانق وإيّاها، أو أن تنحني يمينًا أو يسارًا. وأغرب من شكل رأسه وشعره بشرة وجهه البالغة في السمرة وقد تخلّلتها بقع رماديّة اللون نبت فيها ما يشبه الزغب أو الوبر. أضف إلى ذلك أذنين بالغت محارتاهما في الصغر والتصقتا بالعظم فلا تمرّ قشة بينهما وبينه. أمّا العينان فمستديرتان، صغيرتان، وبلون الليل. وأنت إذ تنظر إليهما لا تدري أهما تبسمان لك، أم تفكّران في مكيدة توقعانك فيها. إلّا إذا اتّفق لصبحي أن يضحك ضحكته العالية، المدوّية.

فالعينان إذ ذاك تتقلّصان ويعلوهما شيء من البريق، ثمّ لا تلبثان أن تغتسلا بالدمع الذي يثيره الضحك الموصول وقد اشتركت فيه جميع الجوارح اشتراكًا عفويًّا لا يقيّده زاجر أو رادع.

لقد أعجز صبحي والديه ومعلّميه. فهو لا ينفكُّ يخاصم إخوته وأخته، ولا يُذعن لأمر من أوامر أمّه وأبيه، إلّا إذا كُلّف عملًا من الأعمال التي تلاقي هوى في نفسه. فهو إذ ذاك ينكبّ على ذلك العمل انكباب المتعبّد على الصوم والصلاة. ولا ينفض منه يده حتّى يأتي غاية في الإتقان. وهو في المدرسة مبعث قلق دائم لمعلّميه، لا يتورع عن لطم هذا من رفاقه ورفس ذاك. وهو يخلق الأسباب حيث لا أسباب.

ولا يردعه عن طيشه وأذاه أيّ قصاص مهما يكن صارمًا. فكم من مرّة انهال عليه معلّمه، أو أمّه وأبوه، بالضرب فما كانت تدمع له عين، أو تندّ عنه صرخة «آخ». بل كان يتحدّى ضاربيه بأن يكتف يديه خلف ظهره، ويعرض لهم جسمه، ويصيح بهم عاليًا: «بعد! بعد! اضرب بعد!»

* * *

كان من الصعب أن تحكم على ذكاء صبحي. فقد كان في بعض دروسه كالفأر في قفص من زجاج، لا يستطيع أن يقضم منه شيئًا. وكان في بعضها كالمنشار في الخشب. وكان أكره ما يكرهه الصرف والنحو والحساب. أمّا البرّيّة بما فيها من نبات وطير وحيوان فكانت أحب شيء إلى قلبه وفكره. فقد كان يحسب البيت والمدرسة سجنًا والبرّيّة جنّة. وفي بعض الأحيان كان يدهش والديه ورفاقه ومعلّميه بصنع أشياء طريفة تنمّ عن خيال خصب وذوق رفيع. من ذلك فراشات صنعها من

الورق العاديّ ولوّنها بألوان تضارع ألوانها الطبيعيّة. وعصفور حفره من الخشب، إذا أبصرته حسبته من صنع الطبيعة، إلّا أنّه لا يزقزق ولا يطير.

وكان من الصعب كذلك أن تحكم على أخلاق صبحي. فهو يمقت الكذب. ولكنّك لا تعرف متى يكون جادًّا في قوله، ومتى يكون مازحًا. وتراه أحيانًا أعند من بغل حرون. وأحيانًا أطوع من الحمَل الصغير. كذلك تشهده في بعض مواقفه فتجزم أنّه بغير قلب، أو أن قلبه من صوان. فهو يقسو منتهى القساوة. وتشهده في مواقف أخرى فتُقسم أنّه الغاية في العطف والرقة.

من أخبار صبحي أنّه التقى مرّة بولد على حافة بركة وفي يده مرسة يشدها إلى فوق ثمّ يدفعها ذات اليمين وذات اليسار، وقد غاب طرفها الآخر في الماء. وإذ سأل الولد عمّا هو فيه قال إنّه جاء بهرّة ليغرقها في البركة. فما كان من صبحي إلّا أن اختطف المرسة من يده، وجذب الهرّة بسرعة ورشاقة. وإذ وجد أنّ بها رمقًا من حياة حلّ العقدة من عنقها ووضعها على مهل في الشمس. ثمّ أخذ المرسة وعقدها حول عنق الولد وقذف به في الماء، وهو يصيح:

– أتريد أن تتذوّق طعم الغرق؟ هكذا يكون الغرق يا نذل. طيّب هو الغرق – إيه؟!

وكان من حظّ الغريق أن مرّ رجل من هناك في تلك الساعة فأنقذه.

ومرّة أخرى صادف صبحي أحد رفاقه في الطريق. وكان يحمل في يديه عشًّا فيه خمسة فراخ لمّا تكتسِ بعدُ أجنحتها بالريش. فأكرهه صبحي على الذهاب معه إلى حيث الشجرة التي كان فيها العشّ. ثمّ أكرهه على تسلّق تلك الشجرة وردّ العشّ والفراخ التي فيه إلى حيث كانت بالتمام. وعندما نزل الولد من الشجرة انتزع صبحي غصنًا من أغصانها وانقضّ به عليه وما فتئ يجلده حتّى كاد ينزع روحه من بين جنبيه. حينئذ أطلقه قائلًا: «اذهب إلى أمّك وقل لها: هكذا يكون نصيب الأوغاد الذين يزعجون الفراخ في أعشاشها ويفجعون والدة في أولادها».

* * *

واتّفق أن أصيب صبحي بالحمّى. وطال مرضه وتعقّد حتّى كاد الطبيب والوالدان أن يقنطوا من شفائه. ولكنّه تغلب في النهاية على الحمّى. وأخذ يستردّ عافيته بالتدريج يومًا بعد يوم. وعندما أذن له الطبيب بتناول قليل من اللحم عنّ لوالده أن يصطاد له بعض العصافير. وشوت الوالدة العصافير وجاءته بها على طبق صينيّ وهي تحسب أنّه سيهشّ لها – أي للعصافير – وسيلتهمها بعينيه قبل أن يتناولها بيديه ويسحقها بأسنانه. إلّا أنّه ما وقع بصره عليها حتّى قفز من سريره كالمجنون. ورفس الطبق بما فيه. فطار بعيدًا وهوى إلى الأرض حيث تبعثر شظايا وتبعثرت العصافير التي فيه. ثمّ راح يشتم أمّه ويعربد، وأمّه مسمَّرة مكانها كالمصعوقة، لا تدري ماذا تقول أو تفعل، ولا كيف تفسّر ما تسمع وترى:

«عصافير؟!... ومن الذي طاوعته يده على قتلها؟ ليتها تنكسر. واليد التي نتفتها وشوتها. ليتها تنكسر كذلك. تريدونني أن آكل لحم العصافير لأستردّ ما أكلته الحمّى من لحمي؟ تريدونني أن أشوي الحمّى بالنار التي شويتم عليها هذه المخلوقات الجميلة البريئة، يا لكم من مجرمين!».

وانبطح الولد على سريره وعضّ وسادته، وتفجرت الدموع من عينيه، فانقطع صوته وراح ينتفض بكلّ جسمه كمن ركبته البرداء، حتّى إنّ السرير من تحته كان يرتقص لارتقاصه.

ذعرت الوالدة للمشهد الغريب الذي فوجئت به، وانعقل لسانها لشدّة ذعرها، وخشيت أن تعاود الحمّى ولدها. فانكبت عليه تقبله وتمسح دموعه، وتحاول أن تهدّئ من روعه، وأن تعتذر له عمّا بدر منها ومن والده، قائلة إنّ شيئًا من ذلك لن يتكرّر في المستقبل. وإنّها ستصلّي إلى الله ليغفر لها ولزوجها إساءتهما إلى العصافير المسكينة. فقال الولد وهو ينشج:

– ولو كنتما والذين على شاكلتكما تعرفون الله أو تخشونه لما قتلتم العصافير التي خلقها بهجة لكم.. تأكلون لحم العصفور وهو لا يسد جوع فأرة. كلوا أغانيه. كلوا ألوانه. كلوا خفق جناحيه. كلوا وداعته وطهارته...

واختنق بدمعه فما بقي يستطيع أن يفوه بكلمة.

لقد وقع ما كانت تخشاه الوالدة. فأصيب صبحي بنكسة قويّة من بعد ما كان من أمره مع العصافير المشويّة. إلّا أنّه تغلّب على النكسة كذلك. وعندما أخذ يستردّ قواه طلب إلى والدته أن تنقل سريره إلى جانب الشبّاك ليتسنّى له تسريح بصره في الطبيعة السائرة في موكب الخريف. فكان له ما أراد. وكان شبّاكه في الدور الثاني والأخير من البيت. وأمامه شجرة من الكرز أخذ الخريف يلون أوراقها بألوان النبيذ والعقيق، ومن حين إلى حين يختطف بعضها فيرسله مع الريح في كلّ جانب.

* * *

كان النهار صافيًا، دافئًا، وهواؤه في منتهى النعومة عندما كان صبحي جالسًا في سريره فأبصر عصفورًا على غصن من أغصان الشجرة التي بقرب شبّاكه. وكان العصفور من النوع الذي يدعونه «بو الحن» اختصارًا لاسمه الكامل «أبو الحنّاء». وللحال انفرجت أسارير الولد، والتمعت عيناه، وارتكض قلبه في صدره، وراح يحدّق إلى العصفور مأخوذًا بكلّ حركة من حركاته. فكأنّه في حضرة ساحر، أو في حضرة روح هبط من الأعالي القدسيّة. وكان العصفور يقفز من غصن إلى غصن، أو إلى الأرض فينقر نقرتين أو ثلاثًا ثمّ يعود إلى الشجرة حيث يأخذ يهزّ ذنبه الرماديّ، أو ينكت صدره القرميديّ بمنقاره الدقيق، أو يصفر صفرات خافتة متقطّعة تنسجم منتهى الانسجام مع جوّ ذلك النهار البديع.

وسكر الولد بحركات العصفور وصفراته، وماع قلبه، وتخدّر دماغه، وبات يتمنّى لو يقفز العصفور إلى شبّاكه ثمّ يسمح له أن يأخذه هنيهة في يديه ويقبّل منقاره وعينيه. مثلما بات يخشى أن يطير من الشجرة ولا يعود. وعنّ له أن يكلّمه بلغته. فصفر صفرة خافتة، حزينة. وإذا بالعصفور يستدير نحوه فيتأمّله لحظة ويطير. فانقبض قلبه، وغامت عيناه مخافة أن يكون قد نفّره لغير ما رجعة. ولكنّه ما لبث أن عاد. فتشجّع الولد وصفر له مرّة أخرى. فما اضطرب العصفور ولا طار. بل اقترب من الشبّاك وراح يهزّ ذنبه وينكت صدره باطمئنان ويحدج الولد من طرف عينه.

عندها ذهب صبحي إلى أبعد من ذلك فجاء بقليل من الحَبّ ورشه في أسفل الشبّاك وراح يخاطب العصفور آنًا بالصفير وآونة بالكلام. فيقول له:

– تعال... تعال... صبحي يحبّك... يحبّك كثيرًا يا «بو الحن». صبحي يريد أن يطعمك. صبحي يريد أن يقبّلك. لا خوف عليك البتّة من صبحي. تعال، تعال وكُلْ.

ولكن «بو الحن» بقي حذرًا طيلة ذلك النهار. فكان يغيب ويرجع دون أن يقترب من الشبّاك إلّا بمقدار. وتوالت الأيّام على ذلك المنوال، إلى أن كان يوم قفز فيه العصفور إلى الشبّاك وأخذ ينقر الحبّ الذي عليه. وبعد أيّام بلغ به الاطمئنان حدًّا لم يخفْ معه من أن يتناول الحبّ من يد الولد الذي أحسّ عندئذ كما لو أنّ الدنيا بأسرها أصبحت ملك يمينه. فقد كانت غبطته بصداقة بو الحن فوق ما يستطيع أيٌّ قلم أو لسان أن يعبِّر عنه. وانتهى الأمر بالصديقين أن بات في مستطاع صبحي أن يأخذ العصفور في يده ويشبعه تدليلًا ولثمًا. وذلك، في نظره، كان السعادة التي ما بعدها سعادة.

ذات يوم، وقد خشي صبحي أن يكون قد ضايق رفيقه بطول مداعبته له، دفع به عاليًا في الهواء فرفرف هنيهة وهبط على أعلى غصن في الشجرة. وبغتة سمع الولد طلقًا ناريًّا. وإذا بالعصفور يهوي إلى الأرض بلا حراك. وإذا برجل يركض لاهثًا وينحني ليلتقط العصفور القتيل.

في تلك اللحظة، وبأسرع من رفة الجفن، قفز صبحي من الشبّاك إلى ظهر الرجل فبطحه أرضًا. وتناول حجرًا كان بالقرب منه وراح يدق به رأسه وهو يصيح بأعلى صوته:

– خذها! خذها! لا عشت تأكل العصافير!

وظلّ يدقّ رأسه حتّى أخمد أنفاسه.

وكان أنّ صبحي، في قفزته تلك، قد كسر ساقه. فحملوه إلى سريره حملًا. وعاودته الحمّى. فهو اليوم بين الموت والحياة... والمحكمة تنتظر إبلاله من مرضه لتصدر حكمها في جريمته. وهو يهذي في سريره فلا ينفكّ يردد:

– خذها! لا عشت تأكل العصافير!

صَادق

مهازل الحياة أكثر من أن تحصى. ومن أطرفها مهزلة الأسماء التي يحملها الكثير من الناس فتبدو كما لو كانت تحقيرًا لهم وتشهيرًا.

كم من «جميلة» لو وقعت عليها عينك لتعوّذت من بشاعتها بإبليس؟ أو «وردة» لو اقتربت منها لظننتك في جوار مزبلة؟ أو «عفاف» ضجّت بفحشها المواخير؟ كم من «أسد» لو رأى أرنبًا في النهار لفرّ لا يلوي على شيء؟ أو «كريم» قد تنتزع عظمة من فم كلب قبل أن تنتزع فلسًا من يده؟ أو «أمين» ليس في الناس من يأتمنه على قشرة بصلة؟ إنّ الأمثلة على ذلك لأكثر من أن تُعدّ.

أمّا صاحبنا صادق الذي جئت أحدّثك عنه فحاله مع اسمه تختلف عمّا ذكرت كلّ الاختلاف. فقد لبسه اسمه كما لبسه جلده – سواء بسواء. حتّى إنّك لو عرفته، وشئت أن تختار له اسمًا، لما اخترت إلّا «صادق». والغريب أنّ هذه المطابقة التامّة بين الاسم والمسمّى قد سبّبت لصاحب الاسم مشاكل هي أبعد ما تكون عن المهازل.

لن يضير صادق إذا أنا منعته من الصرف من بعد أن منعته الحياة ممّا هو أثمن بكثير من التنوين. فقد كان بكر والديه ووحيدهما. والثلاثة ما كانوا يملكون من حطام الدنيا ومن رقعة الكرة الأرضيّة الشاسعة غير الفسحة الضيّقة التي يقوم علها بيتهم الحقير، الصغير. وكأنّ الأقدار، من بعد أن قسمت لصادق تلك القسمة، استكثرت نصيبه وخشيت عليه من الغرور والبطر. فما لبثت أن أرسلت صاعقة ذهبت بوالديه وبالبيت دفعة واحدة، وتركته ولا معين له غير القليل الذي اختزنه من خبرة دنيويّة في خلال السنوات العشر التي عاشها على الأرض.

وأشفق على صادق أحد جيرانه في القرية – وكان فلاحًا ميسورًا – فاكتراه ليرعى بقراته. وسُرّ الفلّاح منتهى السرور بالولد عندما رآه يعتني ببقراته خيرًا منه، وممّا زاد في سروره أنّ صادق كان قليل الكلام، قليل الأكل، لا يطيق البطالة، ولا يعرف الخبث، ولا يعصى أمرًا، ولا

يتفوّه بشكوى، أو بشتيمة، أو بكلمة بذيئة. فقرّ رأيه على أن يقيم للولد أجرًا شهريًّا، ولو ضئيلًا، بالاضافة إلى مؤونته وكسوته.

وذات صباح أبصر الفلّاح رجلًا قادمًا من بعيد. فعرفه وعرف أنّه آتٍ ليستدين منه بعض المال. فدخل البيت وأوصد الباب من الداخل من بعد أن قال لصادق: «عندما يأتي فلان قل له إنّي لست في البيت». وجاء الرجل وسأل صادق عن «معلمه» فأجابه بمنتهى البساطة: «لقد دخل البيت، وأوصد الباب، وأوصاني أن أقول لك إنّه ليس في البيت». فاستشاط الرجل غيظًا وراح يقرع الباب بعنف أكره الفلّاح على الخروج من مخبإه. وكان عتاب انتهى بأن نال الزائر القرض الذي جاء يطلبه. فما إن انصرف وتوارى عن السمع والبصر حتّى انهال الفلّاح بالضرب على صادق، آنًا بكفّيه، وآونة بعصا مسنّنة، غليظة. وما برح به حتّى ارتمى على الأرض فاقد الوعي، مهشّم البدن.

بعد شهور جاء الفلّاحَ رجلٌ غريب وقال إنّه يرغب في شراء بقرة مكتملة الصفات: لبنها غزير، وشكلها جميل، وأخلاقها رضيّة. فأمر الفلّاح صادق أن يقود «الغندورة» إلى الزائر الكريم. وكانت على وشك أن تضع مولودها الثاني. ودرُّها الكبير يكاد ينفجر لكثرة ما تجمَّع فيه من لبن. وبعد أخذ وردّ، وأقسام غليظة من الجانبين، اقتنع الغريب بأنّ «الغندورة» هي البقرة التي يبحث عنها، واخرج المال من جيبه ليدفع الثمن المتّفق عليه. وخطر له، من باب الدعابة، أن يسأل صادق رأيه في البقرة. فقال:

«أنت تحب الغندورة من غير شكّ. وستحزن على فراقها. إنّها بقرة ممتازة من جميع الوجوه. أليس كذلك؟»

فما كان من صادق إلّا أن جرض بريقه وأجاب:

«لولا أنّها تلبط عند الحلب».

فكان أن بقيت البقرة عند صاحبها، ولم يبقَ صادق. ولن يطاوعني قلمي لأصف لك كلّ ما تعرّض له ذلك الولد المسكين من صفع ولطم وركل وشتيمة ودوس بالأقدام، حتّى لكادت روحه تزهق من بين جنبيه.

من بعدها عاش صادق فترة من الزمن وكأنّه قابيل المطرود من وجه ربّه. فما إن يحظى بعمل عند أحد من الناس حتّى تبدر منه بادرة تسبّب له الطرد من عمله. هكذا اتفق له مرّة أن يعمل في خدمة أرملة ثريّة. فأحبّته الأرملة وأتمنته على أشياء كثيرة. وذات يوم استدعته وقالت له:

«اذهب يا صادق لعند السيّدة فلانة زوجة الوزير فلان وقل لها إنّني أشكو صداعًا أليمًا وآسف أن لا أستطيع تلبية دعوتها للسهرة هذه الليلة. إنّها امرأة ثقيلة الدم، مزهوّة بمركزها ومالها. وأنا لا أطيق مجالسها ومجالس الذين تدعوهم إلى بيتها».

فذهب صادق إلى السيّدة وأبلغها الرسالة بحذافيرها، بما فيه قول الأرملة عنها إنها ثقيلة الدم ومزهوّة بمركزها ومالها. وعاد إلى البيت ليبلغ الأرملة أنّه أدّى رسالتها بمنتهى الأمانة. وإذ بها، وسماعة التلفون على أذنها، والهياج باد في صوتها وفي وجهها، تقسم اليمين تلو اليمين انّها لم تقل شيئًا من ذلك لخادمها، وأنّه ولد أبله، كذوب، يختلق الأخبار اختلاقًا. وهي مستعدة أن تصرفه من خدمتها حالما يعود، وأن تذهب إلى السهرة برغم الصداع الأليم الذي تعانيه. «فسهرات عقيلة الوزير من المتع النادرة التي يجب ألّا تفوت من يسعدهم بالاشتراك فيها». – أمّا النتيجة لصادق فكانت أنّه اضطر أن ينام ليلته في العراء.

في تلك الليلة خاطب صادق نفسه فقال:

«لم يبقَ أمامك يا صادق إلّا الانتحار. ها أنت في العشرين من عمرك. وحتّى اليوم لم تستقرّ في عمل واحد من الأعمال الكثيرة التي باشرتها منذ نعومة أظفارك. في حين يستقرّ غيرك في أعمالهم طوال أعمارهم. ما أنت بالأبله ولا أنت تختلق الأخبار اختلاقًا كما قالت الأرملة. ولست بالكسول، أو السرّاق، أو الأفّاك، أو الثرثار، أو الرجل الشرس الأخلاق. فلماذا يجافيك الناس، ويجافيك الحظّ، فتسعى إلى رزقك، ورزقك يهرب منك؟ لو كان لك حقّ في الحياة كباقي الناس لآن لك أن تعرفه وتهتدي إليه. ولكنّك بغير حقّ. إنّك متطفّل. إنَّك صفر في حساب الناس. ومن كان في مثل ما أنت فيه يا صادق كان الانتحار سبيله الأوحد إلى الخلاص».

وقرَّ رأي الفتى على الانتحار – ولكن في الصباح لا في الليل. وبغتة عنّ له خاطر أبصر فيه بصيصًا من النور. فقد لاح له أنّه لو تعلّم قيادة السيّارات لوجد في ذلك مهنة ثابتة تكفل له رزقه وتضفي على حياته لونًا من الثبات.

وكان لصادق ما أراد. وأصبح سائقًا ماهرًا، يدير السيّارة بحذاقة ولباقة كما يدير رجله في المشي وعينه في النظر. وذات يوم قرأ في بعض الصحف أنّ محاميًا يفتّش عن سائق لسيّارته. فذهب إليه في الحال وعرض عليه خدماته. فقال له المحامي وكان رجلًا وقورًا:

«اسمع يا بُنيَّ. لقد بدّلت حتّى اليوم عشرة سوّاقين. أوَتدري لماذا؟ لأنّني أريد من سائق سيّارتي أوّلًا: أن يحسن مهنته. ثانيًا: أن يملك أعصابه فلا يسوق برعونة. ثالثًا: أن يملك لسانه فلا ينقل ولا كلمة من أي حديث يدور بيني وبين أفراد عائلتي وضيوفي، في البيت أو خارجه، وفي السيّارة أو خارجها. رابعًا: أن يكون أمينًا فلا يأخذ ما لا حقّ له فيه من مالي أو مال سواي. خامسًا: أن لا يتذوّق التبغ أو المسكر ولا يقترب من موائد القمار. سادسًا: أن يكون بعيدًا عن الفحشاء. سابعًا وأخيرًا: أن لا يكذب ولو هدّدوه بقطع لسانه. فأكره ما أكرهه الكذب. حتّى في أتفه الأمور. فإن كانت لك هذه المؤهلات فأهلًا وسهلًا بك. وسأعاملك كما لو كنت واحدًا من أفراد عائلتي. وإلّا فابقَ بعيدًا عني».

فأشرقت أسارير صادق وقال بلسان متلعثم من شدة الفرح:

«جرّبني يا سيدي. وما أظنّك تكون إلّا راضيًا».

انقضى عام وبعض العام وصادق يكاد لا يصدّق أنّه اهتدى في النهاية إلى حقّه في الحياة. وإذا عادت به الذاكرة إلى تلك الليلة التي قرّ رأيه فيها على الانتحار ضحك في قلبه من حماقته وشكر ربّه وقال:

«لقد كنت لجوجًا. واللجاجة ضرب من العمى والكفر بالله. أمّا أني تعلّمت قيادة السيّارات، وحظيت بهذا المحامي النبيل، فقد كان ذلك وحيًا من السماء».

وكان يوم بديع من أيّام الربيع. فشاء المحامي وعائلته أن يخرجوا في نزهة بالسيّارة إلى المكان الذي يختاره لهم صادق. فاختار صادق نبعة ثَرّة في واد يبعد عن المدينة زهاء عشرين ميلًا. ظلاله ناعمات، ونسماته بليلات، وأرضه مكسوّة بالخضرة الموشّاة بألوان شتّى الأزهار. وابتهج الجميع بتلك البقعة الساحرة التي اختارها لهم صادق. وكانوا قد جلبوا معهم زادًا كثيرًا لنهارهم. فما دروا من فرط سرورهم، كيف نفد الزاد وكيف تقلّص النهار. فودّعوا الوادي وبودّهم لو يستطيعون نقله معهم إلى المدينة.

وشاء المحامي في طريق العودة أن يقود السيّارة بيده. فتخلّى له صادق عن المقود. وفيما هم يقطعون بستانًا في ضواحي المدينة قفز بغتة إلى الطريق ولد كان يطارد عصفورًا. فما استطاع السائق أن يحيد عنه، ورهسه. فصاح صادق مذعورًا: «لقد رهست الولد يا سيّدي. توقف ولنحمله إلى المستشفى». إلّا أنّ المحامي انطلق بسرعة جنونيّة. وعندما بلغ البيت أوصى بأن لا يفوه أحد منهم بكلمة عمّا كان.

واتفق عند وقوع الحادث أن أبصر البستانيّ رقم السيارة الجانية، فدوّنه ونقله إلى الشرطة. وفي الصباح صدرت الصحف وفيها أن سائق سيارة المحامي فلان قد أخذ السيارة من غير علم صاحبها وخرج في نزهة مع عشيقته. وكان يسوق بسرعة فائقة. فرهس ولدًا كان يسير وحده في الطريق ولم يتوقّف بل تابع سيره بسرعة خاطفة. ويقال إنّه كان في حالة سكر.

وبعد ثلاثة شهور نقلت الصحف الخبر التالي:

«وُجد السجين صادق الضايع، سائق السيارة التي رهست ولدًا منذ ثلاثة شهور، مشنوقًا في زنزانته. وكان قد حُكم عليه بالسجن عشر سنوات. وقد أثبت التحقيق أنّ الوفاة حدثت انتحارًا. وعثروا في جيب المنتحر على ورقة جاءت فيها هذه العبارة، وقد كُتبت بخطّ يكاد لا يُقرأ:

«تبًّا لدنيا لا مجال فيها لصادق!».

مَوعِدَان

كانت الساعة نحو الثامنة مساء عندما دخلت فتاة مقهى متواضعًا من تلك المقاهي التي تنتشر صيفًا فوق آكام لبنان المظلّلة بالصنوبر والسنديان. وكان المقهى كناية عن خيمة مصنوعة من جذوع الشجر، وقد قامت على منبسط من الأرض معلّق على شفير واد بعيد الغور رهيب القسمات.

التفتت الفتاة ذات اليمين وذات اليسار. وإذ لم تجد أحدًا مشت إلى طاولة في زاوية من زوايا المقهى، فجلست إليها وأدارت ظهرها إلى المدخل ووجهها إلى الوادي السحيق. ومن بعد أن سوّت شعرها وتطلّعت إلى وجهها في المرآة وضعت مرفقيها على الطاولة، وأخذت رأسها بين يديها، وأرسلت عينيها تطوفان بجوانب الوادي المقنّعة بنور القمر. وعندما جاءها صاحب المقهى يسألها عمّا تريد أجابت أنّها تنتظر رفاقًا وأنّها لن تشرب أو تأكل شيئًا قبل قدومهم.

وبعد قليل دخل المقهى فتى، ومن غير أن يتطلّع يمنة أو يسرة سار توًّا إلى حيث الفتاة. وكان يمشي كما يمشي الهرّ إذ يترصّد الفأرة. حتّى إذا أدرك الفتاة التمعت عيناه، وأشرق وجهه، وبخفّة فائقة عصب عينيها بكفّيه ولبث ينتظر ما يكون منها. فما كان من الفتاة إلّا أن أخذت يديه بيديها، وقبّلتهما بلهفة، ثمّ استدارت لتلتفت إليه. فجمدت في مكانها، وجمد في مكانه، وطار من وجهيهما ذلك الأُنس الذي احتلّهما لحظة عابرة. وحلّت محله دهشة بالغة يرافقها ارتباك متناه.

– عفوك... عفوك يا آنستي... يا سيّدتي. بالله لا تؤاخذيني. كيف أعتذر لك؟ وهل تصدّقينني؟...

كان الفتى يعتذر بلسان متلعثم، وقد سُقط في يده لفرط انسحاقه ممّا بدر منه. فزادته الفتاة انسحاقًا عندما رفعت إلى وجهه عينين تشتعلان غيظًا وراحت تسلقه بكلمات كأنّها الحمم من البركان:

– نذل وقح. خنزير آدميّ. وحش وأحطّ من وحش.

– صدقيني... أُقسم بشرفي...

– وهل لمثلك شرف؟ إنّ في نعلي من الشرف فوق ما في رأسك.

– رجوتك بالله، بأعزّ ما لديك. اسمعيني دقيقة. دقيقة واحدة...

– وهل ما ستقوله بلسانك خير ممّا قلته بيديك؟

– دقيقة. ثمّ احكي كما تشائين.

– تكلّم.

وتنحنح الفتى، ومسح بمنديله العرق البارد عن جبينه، ثمّ أردف بلسان متلجلج:

– إنّي على موعد في هذه الساعة وهذا المكان مع فتاة... مع خطيبة... فقاطعته الصبيّة بنزق وتهكّم:

– مع فتاة تشبهني. أليس كذلك؟ هذه حيلة الأنذال.

– صدّقيني ما من حيلة في الأمر. فشعرك شعرها. وعنقك عنقها. وكتفاك كتفاها. حتّى الثوب الذي ترتدينه يكاد يكون ثوبها... فأضافت الفتاة زيادة في التهكّم:

– ووجهها وجهي. وعيناها عيناي. فكأنّني وإيّاها توأمان.

– لا. إنّ وجهها غير وجهك. وعينيها غير عينيك. فلو أنّني رأيتك من الأمام عندما دخلت لما انخذعت ولكنّني أبصرتك من الخلف.

– ووجهها، بالطبع، أجمل من وجهي.

قالت الفتاة ذلك وقد بدا على أطراف شفتيها ما يشبه البسمة. فاطمأنّ الفتى بعض الاطمئنان وتابع فقال:

– ليس وجهها أجمل من وجهك. ولكنّه...

– ولكنّه أكثر نعومة؟!

– بل أكثر... لست أجد الكلمة المناسبة. ولعلّك تفهمين قصدي إذا قلت لك إنّها لو اتّفق لها مع فتى غريب مثلما اتّفق لك معي لما قابلته بمثل ما قابلتني به من التقريع والتأنيب والجفاء.

– لعلّها أوفر تهذيبًا ورباطة جأش منّي. أليس كذلك؟

– أجل. رباطة جأش.

– ما أظنّها، لو كانت في ثيابي، تفعل غير ما فعلت. وأنت، لو كان لك أن تبصر ما كان يجول في قلبي ودمي ساعة فاجأتني بفعلتك لما لمتني على ما بدر منّي.

– أأستطيع أن أعرف شيئًا من ذلك الذي كان يجول في خاطرك؟

هنديئذ اعتدلت الفتاة في كرسيّها وأرسلت نظرة ساهمة عبر الوادي ولم تفه بكلمة. فاهتبلها الفتى فرصة سانحة ليجلس قبالها ويرسل، هو الآخر، نظرات ساهمة إلى الوادي وما وراءه. وطال الصمت. وأخيرًا تنهّدت الفتاة وقالت:

– لعلّ الذي كان يدور في خاطري كالذي كان يدور في خاطرك.

فأجاب الفتى وقد ذهب بعض ما كان قد استحوذ عليه من الخجل والغضب:

– أتعنين أنّك كذلك...

– أجل. أنا كذلك على موعد في هذه الساعة وهذا المكان، وقد ظننتك، حين وضعت يديك على عينيّ – ظننتك إيّاه – خطيبي. كنت أنتظره على أحرّ من الجمر. ولك الآن أن تتخيّل عظيم خيبتي عندما فتحت عينيّ على وجه غير وجهه. ولكنّه سيدفع الثمن.

– وأيّ ثمن؟

– ثمن خيانته. ثمن إبطائه في المجيء.

– ولك كذلك أن تصوّري لنفسك عظيم خيبتي عندما رفعت يديّ عن عينيك فأبصرت وجهًا غير وجهها. لقد جئت مسوقًا بشوق هاصر. جئت ويد على قلبي والأخرى على ساعتي مخافة أن أتأخّر لحظة عن الموعد المضروب. فكان نصيبي منك ما كان. وكان نصيبي منها فوق نصيبي منك، هي كذلك، ستدفع الثمن.

– وأيّ ثمن؟

– ثمن الحنث في الوعد.

– صدّقتك الآن. أفلا عذرت ما بدر منّي؟

– عذرت فاعذري.

وطال الحديث بين الشاب والصبيّة ساعتين وبعض الساعة. وصفا الجوّ بينهما فتناولا شيئًا من الطعام وأقداحًا من الشراب. وسُمعت لهما قهقهات عندما غادرا المقهى وذراعها في ذراعه، وعيناه في عينيها.

بعد انصرافهما بقليل دخل المقهى شاب تضوّع من شعره وثيابه روائح الطيوب. فجلس إلى الطاولة التي كانا جالسين إليها، وأخذ يحدّق إلى الساعة التي على معصمه، وعندما اقترب منه صاحب المقهى سأله إذا كانت فتاة صفاتها كيت وكيت قد سبقته إلى المقهى. فأخبره الرجل أن الفتاة التي وصفها جاءت المقهى من زمان وتناولت طعام العشاء برفقة شاب لطيف جدًّا، ثمّ انصرفت وإيّاه منذ نصف ساعة أو أقلّ. فامتقع وجه الشاب، واختلجت شفتاه، وراح يداعب بيديه كأسًا فارغة كانت على الطاولة أمامه. فآنًا يدحرجها، وآونة يأخذها بكلتا يديه ويضغط عليها كأنّه يريد أن يعجنها عجنًا أو أن يعصر منها مسكّنًا لأفكاره وأعصابه الهائجة، وكان ظهره إلى مدخل المقهى ووجهه إلى الوادي.

وهو كذلك وإذ بفتاة تدخل فتهرول إليه، وإذ تدركه تضربه بكفّها على كتفه وهي تحاول الضحك وتقول بصوت عالٍ:

– واخجلي منك يا حبيبي! لقد تأخّرتُ لأسباب قاهرة ستعذرني متى عرفتها.

وعندما رفع الفتى عينيه إليها ارتدّت إلى الوراء، واكفهرّ وجهها، وقالت متلعثمة:

– واخجلي منك... يا سيّدي...

فأجابها الفتى على مهل، وقد اعتراه من الدهشة مثلما اعتراها:

– لا داعي للخجل يا آنسة. لقد غلطتِ من غير شكّ. وكلّنا معرَّض للغلط.

– أجل غلطتُ. فقد حسبتك إيّاه.

– محبوبك أو خطيبك؟

– نعم خطيبي. فأنا وإيّاه على موعد في هذا المكان. وقد تأخّرت عن الموعد ساعتين وأكثر... تأخّرت لأسباب قاهرة.

– يبدو أن حكايتك تشبه حكايتي. فأنا كذلك على موعد مع خطيبتي في هذا المكان. وقد جئت متأخّرًا ساعتين، وذلك لأسباب قاهرة.

– ألعلّها هي الأخرى تأخّرت؟

– بل جاءت في الموعد.

– وكيف عرفت؟

– عرفت من صاحب المقهى.

– وأين هي الآن؟

– انطلقت من هنا في صحبة شاب أجهله. هكذا أخبرني صاحب المقهى.

– لعلّه خطيبي.

– قد يكون. سلي صاحب المقهى. صفيه له.

وصدق ظنُّ الفتاة. فالشاب الذي خرج من المقهى منذ نصف ساعة برفقة الصبيّة الغريبة ما كان إلّا خطيبها.

* * *

كان البدر قد توسّط السماء عندما خرج الفتى والفتاة من المقهى من بعد أن أكلا هنيئًا وشربا مريئًا. وكانا يسيران على مهل في طريق ضيّق يتلوّى بين الصنوبر والسنديان، وذراعه حول عنقها، وذراعها حول خصره. وكانت تخاطبه ويخاطبها همسًا. فتقول:

– أجادّ أنت في تصميمك يا بشّار؟ فيجيبها:

– منتهى الجدّ يا عفاف.

– أواثق أنت من أنّك لن تندم عليها؟

– كلّ الثقة. فالتي لا تنتظرني ساعتين كيف لي أن أعيش برفقتها السنين؟ وأنت يا عفاف، أواثقة من أنّك لن تندمي عليه؟

– منتهى الثقة يا بشّار.

– أمستعدة أنت لنعقد قراننا في الغد؟

– بل الليلة إذا شئت.

– إذن قرّبي شفتيك من شفتيّ.

وتلاصقت شفاههما في قبلة مديدة، لاهبة.

في تلك الأثناء كان شبحان آخران يتهاديان في ضوء القمر ما بين الصنوبر والسنديان – شبحا فتى وفتاة. وكان الفتى يقول للفتاة.

– عندما ضربتُ موعدًا لعفاف في ذلك المقهى كنت في الواقع، أضرب موعدًا لك. وكنت أجهلك كلّ الجهل. أوَليس في ذلك العجب العجاب؟

– وأنا عندما ضربت موعدًا لبشّار كنت في الواقع، أضربه لك. وكنت أجهلك تمام الجهل. حقًّا إنّه لأمر عجب.

– أنادمة أنت على ما كان؟؟

– وهل أندم على ترك خطيب يعبث بوعوده لي؟ بل إنّي أشكر الله على ما كان. أنادم أنت؟

– أبدًا – حتّى وإن عنّ لكِ أن تندمي فيما بعد.

– إذن قرّب شفتيك من شفتيّ.

عَلى الله

تناول التاجر فطوره وتذكّر ما قاله له أمس الطبيب من أنّ ضغطه في ارتفاع لأنّ وزنه في ارتفاع. فحريّ به أن يلوذ بالرياضة البدنيّة. فهي خير العلاج للسمنة. وخير الرياضة لمن كان في سنّه هو المشي. فليكثر من المشي.

تذكّر التاجر ذلك وقرّ رأيه على الاستغناء عن سيّارته في الذهاب إلى متجره والإياب منه في كلّ يوم. ورأى أن يقطع المسافة – وما هي بذات بال – مشيًا على قدميه. فمشى. وما كاد يجتاز عتبة البيت إلى الشارع حتّى اعترضته امرأة تحمل طفلًا. فمدّت إليه يدها تستجدي بعين منكسرة وصوت أبحّ:

«حسنة لوجه الله يا سيّدي».

فأجابها وقد وسّع ما بين خطاه:

«على الله».

ومضى وهو يقول في نفسه: «لقد أصبح هؤلاء الشحّاذون أكثر من الهمّ على القلب، وأمكر من الثعالب. وهم يمتهنون الشحاذة فيجمعون الأموال ويتظاهرون بالفقر. وإنّي لأقسم أنّ الولد الذي على ذراعي هذه المرأة ليس ولدها. فهي تستعيره من بعض جاراتها لتصطاد به القروش».

عدّ التاجر الشحّاذين الذين اعترضوا سبيله ما بين مسكنه ومتجره فإذا هم خمسة: المرأة التي ذكرت، وشيخ أعمى، وفتى مبتور الساق والساعد، وفتاة تقوّس ظهرها وكاد صدرها يلتصق ببطنها، وولد يزحف على الأرض زحفًا فيدفع نفسه إلى الأمام آنًا بمرفقيه يشدّ بهما على الرصيف، وآونة بكفّيه. وكان جوابه لكلّ من هؤلاء واحدًا: «على الله!» وكان حديثه عنهم مع نفسه واحدًا: «إنّهم قوم أذلّاء، ماكرون. وعلى الحكومة أن تريح الناس منهم. فهم يزعجون الناس ويشوّهون سمعة المدينة».

ما كاد التاجر يجلس في كرسيّه الوثير ويتناول جريدة الصباح ليلقي نظرة على ما فيها من أخبار قبل أن يباشر أعمال يومه حتّى دخل عليه جاره – وكان تاجر حبوب مثله. ومن غير أن يطرح عليه السلام بادره بقوله:

«ماذا يا جار؟ لقد نزل المقدور. إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

فذهل التاجر للاضطراب البادي على وجه جاره وفي صوته. ولم يفقه لكلامه معنى. فأجاب من غير أن يفكّر في جوابه:

«ومَن المتوفّى؟ ألعلّه من أصحابنا؟»

فردّ عليه جاره بنبرة حادّة، وبشيء من التهكّم:

– مَن المتوفّى؟!... أنت... وأنا... وعشرات غيرنا. أما قرأت الجريدة؟ إنّها في يدك. اقرأ هنا. – ودلّ بإصبعه على عمود في الصفحة الأولى، وإذا فيه أن «البنك التجاريّ» قد أعلن إفلاسه. فارتجفت يدا الرجل، وسقطت الجريدة منهما، وجحظت عيناه، وأكفهرّ وجهه، وانعقد لسانه. وشاء جاره أن يلطّف من وقع الخبر عليه فقال معزيًا وكان أحوج إلى العزاء:

– بالمال ولا بالرجال يا جار. المال يأتي ويروح. والمصيبة إذا عمّت هانت. والمصابون كثار. ونصيبي من المصيبة خمسة آلاف. فما هو نصيبك؟ أرجو أن لا يكون فوق ذلك. لا بأس. لا بأس. احسب أنّك ما ربحت في صفقة الشعير الذي أرسلته أخيرًا إلى تشيكوسلوفاكيا. وقد بلغني أنّ ربحك منها بلغ العشرة آلاف. ومن ثمّ فليس عندك من العيال مثل ما عندي: زوجة وخمسة أولاد كلّهم قصر. أمّا أنت فلا أولاد. إنّي أحسدك...

كان الجار يتكلّم كمن يهذي. وشقّ عليه أن لا يلاقي كلامه التأثير الذي كان يرجوه في جاره. فقد بقي هذا الأخير شارد البصر، مقفل الفم، مكفهرّ اللون، لا يتحرّك فيه عضل غير أصابع يديه، فقد كان يفتحها ويضمّها بغير انقطاع كمن يُليّنها بعد خدر، أو تخلّصًا من قرصة صقيع. وفيما الاثنان كذلك إذا بمتسوّلة تدنو من الباب وتمدّ يدها قائلة بصوت خافت:

«من مال الله».

فما كان من الجار، وقد غاظه أن يذهب كلامه مع جاره جزافًا، إلّا أن أفرغ غيظه على المرأة الواقفة بالباب. فانتهرها بصوت عالٍ:

«انصرفي عنّا يا امرأة. نحن في كربة ما مثلها كربة. ولا وقت لنا نضيعه عليك. ولعلّنا غدًا نستعطي منكِ بدلًا من أن تستعطي منّا، فنقول لكِ ما تقولينه لنا الآن: «من مال الله.» انصرفي! «على الله!» – فانصرفت المرأة وهي تتمتم: «الله يفرّج كربة كلّ مكروب».

وكان سكوت فتح من بعده التاجر فمه ليقول على مهل، وكأنّه يخاطب نفسه أو يخاطب شخصًا غير منظور:

– على الله... وماذا علينا نحن؟

وراق الجار أن يعود جاره إلى النطق، فكرّر سؤاله وأجاب عليه:

– ماذا علينا نحن؟! لا شيء.

– لا شيء؟!

– أجل. لا شيء. الكلّ على الله.

– الكلّ على الله؟! حتى الربح والخسارة وإفلاس البنك التجاريّ؟

– حتّى الربح والخسارة وإفلاس البنك التجاريّ.

– ما كان، سبحانه، يومًا تاجر شعير أو مدير بنك.

– إنّه مقسّم الأرزاق.

ولكنّه يقسمها بواسطتك وواسطتي... – وانتهى حديث الجارين إلى لا شيء.

في مساء ذلك اليوم عاد التاجر إلى بيته. فما إن تناول عشاءه حتّى أصيب بنوبة قلبية حادّة. فاستُدعي الطبيب في الحال. وفحص الطبيب العليل ودقّق في الفحص. ومن بعد أن قدّم له الإسعافات الضرورية أمر بأن يلزم فراشه وأن يبقى فيه بغير حراك. وإذ اقتربت منه الزوجة وسألته هل من خطر مداهم، هزّ برأسه وأجابها:

– لقد عملت كلّ ما أستطيع عمله في مثل هذه الحال. والباقي على الله.

وسمع العليل ما قاله الطبيب فردّد بالهمس وبصوت متقطّع:

– على... الله...

ثمّ أضاف:

وماذا علينا نحن؟... لا شيء؟!

* * *

انقضت سنوات ونسي الناس «البنك التجاريّ» وما جرّه إفلاسه من فواجع. ولكنّهم ما برحوا يتحدّثون بمنتهى الاعتزاز والإعجاب عن مأوى الفقراء والعجزة الذي شيّدته أرملة التاجر تنفيذًا لوصيته في ضاحية جميلة من ضواحي المدينة. وقد حفرت فوق بابه هذه الآية:

على الله... وعلينا.

هَديّة

كان ذلك السبت من تمّوز يومًا مشهودًا في حياة مسعود. فقد أشرف البنيان على نهايته، وألحّ صاحبه على البنّائين والفعَلة أن لا ينصرفوا قبل أن يضعوا آخر حجر في آخر مدماك، حتّى وإن دهمتهم الظُّلمة. ومهمّة مسعود في البناء كانت محصورة في نقل الحجارة على ظهره إلى البنّائين. وهي مهمّة تفوَّق بها في القرية نظرًا لمتانة صُلبه وركبتيه، وسعة صدره ومنكبيه، وقوّة رجليه وساعديه، ولباقته في صعود السلالم والمشي على «الصقالات» العالية الضيّقة، الرجراجة.

لقد كانت لمسعود قوّة الحصان مع رشاقته، وقوّة الثور مع لين عريكته. فما روى عنه أحد أنّه ذلّ أو تسكّع لإنسان، أو أنّه تلفّظ مرّة بشتيمة أو بكلمة بذيئة، أو أنّه شكا شدّة التعب أو تهرّب من حمل حجر ثقيل. وهو إلى ذلك، لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره.

ما ضايق مسعودًا في ذلك السبت المشهود أنّه نقل مئة واثنين وخمسين حجرًا بين كبير وصغير، وبعيد وقريب. وضايقه أنّ رفاقه في «الورشة» – وقد نهكهم التعب – أخذوا يداعبونه من بعد أن فات وقت انصرافهم مداعبات ظنّها سمجة وخالية من الذوق، كأن يقول واحدهم: «ضاقت خطوات مسعود وارتخت ركبتاه».

فيجيبه آخر: «لا ضاقت خطواته ولا ارتخت ركبتاه. ولكن صدره ضاق بالانتظار، وارتخت نفسه إلى قُبلة من شفتي عروسه الورديّتين».

ويعلق ثالث: «من كانت له عروس كعروس مسعود كان من حقّه أن يعود إليها قبل الغروب»، وهكذا دواليك.

والواقع أنّ مسعودًا، ولم يمضِ على زواجه غير أسبوعين، كان في أشدّ الشوق إلى زوجته الحسناء. فحبّه لها كان بغير حدّ. وكذلك حبّها له. فما كان يطيق أن يأتي أحد على ذكرها في سبيل المزاح. والذي زاد في شوقه إلى الانصراف أنّ ما يشبه الوحي هبط عليه في خلال النهار حول الهديّة التي يليق به أن يقدّمها إلى زوجته فيكون لها أبلغ الأثر في نفسها.

لقد أنفق على عرسه كلّ ما ادّخره من وفر. فكان عليه أن يحسب لكلّ قرش حسابه، إذ كان يعرف أن لا معين له على العيش غير عضلاته. فهو لا يملك من حطام الدنيا إلّا الكوخ الذي بناه بيديه على فسحة ضيّقة من الأرض ورثها عن والديه. وهو، من بعد أن تزوّج، بات يشعر بثقل المسؤوليّة الملقاة على عاتقه، وإن تكن مسؤوليّة عذبة. ومن عذوبتها أنّه، منذ أن تزوّج، ما انفكّ يفكّر في شيء يهديه إلى رفيقته ويكون من شأنه أن يُدخل البهجة إلى قلبها من غير أن يرهق ميزانيّته الضئيلة. وقد اهتدى إلى ذلك الشيء بغتة إذ كان يحمل حجرًا تفوق زنته القنطار ونصف القنطار: إنّ بيتهما لا يحتوي مرآة. والأصحّ أنّه يحتوي شظية صغيرة من مرآة التقطها من زمان في كومة النفايات خلف بيت الثريّ الذي كانوا يبنون له قصرًا جديدًا. ولكم كان يشعر بالمرارة كلّما رأى زوجته تتناول تلك الكسرة وتحاول تركيزها هنا أو هناك لتسرّح أمامها شعرها.

عاد مسعود إلى بيته تحت جنح الظلام غير عابئ بتعب في رجليه وضيق في صدره. فقد كان قلبه يرتقص فرحًا كلّما فكّر بزوجته وبالغبطة البالغة التي سيحملها إليها بعد الغد عندما يهبط المدينة ويبتاع لها مرآة كبيرة في إطار مذهّب. وكان قد اختار لها الموقع الأنسب على الحائط. وقد قرّ رأيه أن لا يطلع زوجته على خطّته فيفاجئها بالمرآة الجميلة وقد أخذت المكان اللائق بها على الحائط.

كان يمشي بخطوات واسعة ويمناه في جيب سرواله الممزَّق تقبض على الليرات الثلاثين التي نقده إيّاها صاحب البناء أجرة أسبوعه. وكانت يسراه تتحسّس صدره من حين إلى حين كأنها تحاول تجفيف قميصه المبلّل بالعرق. وكان يرتّب في تفكيره طريقة إنفاق أجرة الأسبوع بحيث يبقى منها ما يكفل ابتياع مرآة كبيرة في إطار مذهّب:

«عشر ليرات – طحين. خمس ليرات – زيت وملح وصابون. يبقى خمس عشرة ليرة. أظنّها كافية لابتياع مرآة جميلة. والسكّر والأرزّ يا مسعود؟ عندنا بعض العدس والبرغل. ونستطيع أن نعيش أسبوعًا بغير سكّر. وحذاؤك يا مسعود؟ لقد بات بدون نعل، حتّى إنّ الشوك والحصى تجرح رجليك. وأنت تحمل الحجارة، فلا بدّ لك من حذاء متين. ألا يمكن أن تنفق على تصليح حذائك ليرة ونصف ليرة؟ وأيّ بأس لو كانت المرآة ثلاث عشرة ليرة ونصف، بدلًا من خمس عشرة ليرة؟ لا. لا. فالمرآة ينبغي أن تكون من النوع الممتاز. أمّا الحذاء فسيأتي دوره في الأسبوع المقبل. وهناك ورشة جديدة تنتظرك. وهي ستدوم شهرين، وستكسب منها قرابة مئتين وخمسين ليرة. لا. لا. لنؤجّل كلّ شيء إلّا المرآة».

هكذا كان مسعود يفكّر في طريقه إلى البيت فلا يستقرّ على رأيه حتّى يباغته رأي جديد. وقبل أن يبلغ عتبة البيت شعر بدوار في رأسه وبانزعاج غير مألوف في مجرى التنفّس. فتنحنح وتفل، وأحسّ ما يشبه طعم الدم في فمه.

لم ينم ليلته تلك نومًا هنيئًا كالمعتاد. وعزا قلقه وأرقه إلى الهواجس التي تطرد النوم من عينيه كلّما فكّر في المرآة، وفي الذهاب إلى المدينة صباح الاثنين، وفي عذر يبرّر ذلك الذهاب من غير أن يثير الشكوك في فكر زوجته. فقد كان يحرص كلّ الحرص على أن تاتي هديّته مفاجأة لها. وكان يصوّر لنفسه عظيم دهشتها وغبطتها عندما يعود في المساء حاملًا إليها المرآة الكبيرة. وكيف أنّها ستنهال عليه بوابل من الهتافات والأسئلة، ثمّ تطوّقه بذراعيها وتشبعه لثمًا وضمًّا. أجل سيكون المشهد مؤثّرًا للغاية. بل سيكون قمّة السعادة في حياته. ولكن... ما هو العذر الذي سيختلقه؟

لحظت الزوجة في الصباح اضطرابًا وشحوبًا في وجه زوجها. فما تمالكت أن سألته:

– ما لك يا مسعود؟

فشقل مسعود كتفيه وقلب شفتيه وأجاب بغير اكتراث:

– لا شيء... لا شيء على الإطلاق.

– بلى. فأنت اليوم غيرك في كلّ يوم.

– لم أنم كالمعتاد، ولا شيء غير ذلك.

– ولماذا لم تنم؟ أتعبت أمس فوق المعتاد؟ أتشكو وجعًا ما؟ أم أنّ ضرسك ثار عليك من جديد؟

ما كاد مسعود يسمع سؤال زوجته الأخير حتّى انتفض، واعتدل في جلسته. ثمّ وضع كفّه على خدّه وقال بخبث لم يعتده من قبل:

– لقد حزرت. إنّه ضرسي يا حبيبتي حرمني النوم.

وفي الحال دنت منه زوجته وضمته بلهفة إلى صدرها، وقالت بصوت يقطر حنانًا ومحبّة:

– سلامة قلبك من الوجع. غدًا. غدًا مع الفجر تنزل إلى المدينة وتذهب إلى طبيب الأسنان ليقلعه لك. كفاك ما تحمّلته منه في الماضي ولن يأتيك منه بعد اليوم إلّا الوجع. اقلعه. لا كان ولا كان الوجع. وجع الأضراس لا يطاق. غدًا. مع الفجر. أسمعت؟

* * *

قبل انبلاج الفجر كان مسعود يقطع الأميال العشرة التي بين قريته والمدينة خطوة خطوة. لقد آثر المشي على ركوب «الأومنيبوس» لا بخلًا بل اضطرارًا. فما كان يريد أن ينفق قرشًا من المبلغ الذي رصده لابتياع الهديّة. وعندما بلغ المدينة – ولم يكن قد زارها من قبل غير مرّة واحدة – هاله ما فيها من ازدحام وضجّة. وراح يتنقّل في شوارعها لعلّه يهتدي إلى حانوت تباع فيه المرايا فلم يهتدِ. عندئذٍ أخذ يسأل المارّة عن حاجته وأين يجدها. فكان البعض يجيبه «لا أعرف». والبعض لا يلقي إليه وإلى سؤاله أقلّ بال. وعندما كاد اليأس يدبّ إلى قلبه، اقترب منه شاب حسن الهندام، وسأله بمنتهى اللطف والرقّة:

– عمّاذا تبحث يا أخي؟
فأشرق وجه مسعود ومسح العرق عن جبينه بسبّابته، والتفت إلى الشاب وقال:
– عن الحانوت الذي تباع فيه المرايا. ألعلّك تعرفه يا أفندي؟
– لا أعرف غيره.
– وهل فيه مرايا كبيرة في إطارات من ذهب؟
– فيه المرايا من جميع الأجناس والقياسات.
– وكم أثمانها؟
– من الألف فما دون.
– ألف؟! يا ربّي!
– وما هو الثمن الذي تريد أن تدفعه؟
– خمس عشرة ليرة. ألا أستطيع أن أشتري بهذا المبلغ مرآة كبيرة وفي إطار مذهّب؟
– بكلّ تأكيد. على أن لا تكون الليرات التي معك مزيّفة.
– مزيّفة؟! وهل هنالك ليرات مزيّفة؟
– لله ما أبسطك يا أخي! أما سمعت أن نصف نقدنا بات مزيّفًا؟

امتقع وجه مسعود واضطربت يده في جيبه. وما هي إلّا هنيهات حتّى أخرج النقود التي معه وعرضها على محدّثه ليستوثق من أنّها غير مزيّفة. فتناولها الغريب وتفحّصها مليًّا ثمّ ردّها إليه قائلًا إنّها، لحسن الحظّ، خالية من الغشّ.

ومشى الرجلان وسط الزحام ومسعود يكاد ينسحق انسحاقًا لفرط ما لقيه من لطف الشاب الغريب واهتمامه بأمره. فلا يدري كيف يعبّر له عن عظيم امتنانه. وأخيرًا انتهى بهما المطاف إلى حانوت كبير مليء بالمرايا. فما كان من الشاب إلا أن قدّم مسعودًا إلى صاحب الحانوت وأوصاه به خيرًا، وانصرف بعد أن حمل معه الكثير من آيات الشكر التي صاغها له مسعود بلسان متلعثم ولكنّه صادق.

بعد تفتيش ممضّ كاد صاحب الحانوت معه أن يكفر بربّه وبالمال والتجارة، اهتدى مسعود إلى ضالّته وطلب إلى التاجر أن يلفّها بورق سميك. ففعل. ومدّ يده إلى جيبه ليدفع الثمن. فجمدت يده وسُمّر في مكانه. لقد كان جيبه فارغًا. وراح، كالمجنون، يتفحّص جيوبه وعبابه والأرض حواليه – ولكن بغير جدوى. لقد طارت دراهمه بين الأرض والسماء. وهمّ بأن يخرج ليفتّش عنها في الشوارع التي اجتازها. إلّا أنّ التاجر أدرك ما به فسأله إذا كان يعرف الشاب الذي جاء به إلى حانوته. فأخبره بأمره وتعجّب منتهى التعجّب عندما عرف من التاجر أنّه هو كذلك كان يجهله كلّ

الجهل. وعندما أفهمه التاجر أنّه وقع ضحيّة لنشّال اسودّت الدنيا في عينيه، فأغلقت كلّ أبواب الفرج في وجهه. لقد كانت محنته فوق ما كان يتحمّله قلبه وإدراكه.

وفيما هو كذلك، إذا به يبصر رجلًا من قريته يمرّ من أمام الحانوت. فهرول إليه وأخبره بما حدث له، ورجاه رجاء حارًّا أن يقرضه المبلغ المطلوب منه. فما خيّب الرجل رجاءه. وكانت هي المرّة الأولى يشعر فيها مسعود بذلّ المستدين تجاه المدين، وبلذّة الفرج يأتيه من إنسان لا حقّ له عليه غير حقّ الجوار وحقّ الإنسانيّة الصرف.

بلغ مسعود بيته في المساء منهوك القلب والفكر والبدن. ولكن الفرح البالغ الذي استقبلت به زوجته المرآة كاد ينسيه ما به. وقد رأى من الخير أن لا يطلعها على ما كان من أمره مع النشّال. إنّها لخسارة عظيمة من غير شكّ. ولكنّه سيعوّض عنها إذا دامت له العافية. أمّا الفرح الذي حملته المرآة لزوجته وله فلا يمكن أن يبتاعه بمال. إنّه لا يُثمّن.

وألحّت الزوجة على تعليق المرآة في الحال. فجاء مسعود بمسمار ودقّة في الحائط – في المكان الذي كان قد اختاره من قبل. وعلّق المرآة بالمسمار ثمّ دعا زوجته لترى إذا كان علوّها مناسبًا. فما إن اقتربت منها ولمستها حتّى انقلع المسمار وهوت المرآة إلى الأرض، وتطايرت شظايا. وصعقت الزوجة إذ رأت زوجها كذلك يهوي إلى الأرض ثمّ سمعته يستنجد:

«طبيب...»

عُلبَة كبْريت

ما كتبتُ قصّة إلّا اختلقتُ أشخاصها وأحداثها اختلاقًا. أمّا هذه القصّة – إن جاز أن ندعوها كذلك – فنصيبي منها لا يتعدّى التسجيل. والذي رواها لي صديق مكتمل الرجولة والثقافة، لا يلقي الكلام على عواهنه ولا يبالغ، ولا هو مولع بالزخرفة والتنميق.

قال صديقي، وقد دار الحديث بيننا على الشرق والغرب وأيّهما أكثر تكالبًا على المادّة:

«دعني أروي لك، وبدون تعليق، حادثين وقعا لي منذ زمان ليس بالبعيد. ولك أن تستخلص منهما ما تشاء. أمّا الأوّل ففي قرية صغيرة من قرى البقاع في لبنان، وأمّا الثاني ففي باريس.

«تعرف أنّ في طباعي بعض الشذوذ. مثلًا: إنّني ألزم بيتي حين يطفر الناس من بيوتهم. وأطفر من بيتي حين يلزم أكثر النّاس بيوتهم. يعيّد الناس فأقيم مناحة. وينوحون فأعيّد. يجبنون فأستبسل. ويستبسلون فأجبن.

«هكذا استبسلت ذات ليلة عاصفة من ليالي الربيع كان المطر ينهمر فيها بغزارة حوّلت شوارع بيروت سواقي وأنهارًا، وكان البرق والرعد يتعاقبان بغير انقطاع. فقد عنّ لي أن أذهب في سيّارتي إلى بعلبك وأعود. ولا شغل لي في بعلبك، ولست أعرف أحدًا فيها، ولا خطرت قلعتها ببالي. ولكنّني كنت أتخيّلني سائرًا في الطريق وحدي، تواكبني الظُّلمة، والرعد والبرق، والسحاب الهتون، فأنتشي بتخيّلاتي. وعندما خدعت والدتي فأوهمتها أنّني خارج في زيارة ضروريّة لا تقبل التأجيل جنّ جنونها وراحت تتوسّل إليّ أن أعتذر بالتلفون، أو لا أعتذر على الإطلاق. فالعاصفة وحدها كانت خير عذر. حتّى الثعالب لا تخرج من أوجارها في مثل تلك العاصفة. ولكنّني ما تزحزحت عن عزمي. فرضخت الوالدة وهي تقرع صدرها بالصلاة لربّها ليردّ إليّ رشدي. وقد وعدتها أن لا أطيل سهرتي فأعود قبل منتصف الليل.

«مضيت في سيّارتي أطوي منعطفًا تلو منعطف في الطريق الجبليّ ما بين بيروت وسهل البقاع. ولا تسل عن شعوري وأنا أشقّ قلب الظُّلمة، وأرقب حبال المطر على أنوار السيّارة،

وأسمع أزيز الدواليب على الإسفلت المغمور بالمياه، وقرقرة الرعد في أحشاء الليل، وهدير السواقي المنحدرة من الجبال. لقد كنت من كلّ ذلك في دنيا من السحر والرهبة.

«بلغت السهل فانطلقت بسرعة جنونيّة. وما إن قطعت بضعة كيلومترات حتّى لاح لي عن يميني ضوء ضئيل، بعيد يرتجف في الظلام، ثمّ آخر، ثمّ آخر. إنّها أضواء قرية من غير شكّ، وشاقني في الحال أن أُدرك تلك القرية. لماذا؟ لست أدري. لقد كان في تلك الأنوار اللاهثة ما يغري ويجذب. فنسيت بعلبك ورحت أفتش عن طريق إلى القرية. وما طال أن اهتديت إلى مفرق فانحرفت إليه وسرت في طريق ضيّق وغير معبّد. إلّا أنّني ما قطعت مسافة منه حتّى تبيّن لي أنّني لن أقطعه إلى آخره. فقد كانت الأخاديد والأوحال تزداد هولًا كلّما توغّلت في السير. ولم يكن في استطاعتي أن أعود أدراجي. فوضعت روحي على كفّي ومضيت بالسيارة إلى الأمام.

«إلّا أنّني، ولم يبقَ بيني وبين القرية أكثر من نصف كيلومتر، شعرت فجأة أنّ السيّارة قد غاصت في الوحل والماء حتّى الأبواب. فأيقنت أن لا حيلة لي معها، وأنّ لا مناص لي من دفع ثمن باهظ لشذوذي – أو قل لجنوني. والذي زاد في حالتي حرَجًا أن مصابيح سيّارتي انطفأت، فبتّ وإيّاها في ظلام دامس.

«وأنا كذلك، إذا بأنوار تتحرّك من القرية نحوي – وتتحرّك بسرعة. إنّهم، لا شك، قوم أمضوا سهرتهم في هذه القرية وهم الآن عائدون إلى قريتهم. هكذا قدّرت. ولكنّني أخطأت التقدير. فقد أبصر هؤلاء القوم أنوار سيّارتي تتّجه نحوهم، ثمّ تنطفئ. فأدركوا أنّ عطلًا طرأ على السيّارة وأن لا بدّ من إنقاذ مَن فيها. وما هالهم المطر ولا الوحل.

«بعد قليل وجدتني في بيت مختار القرية، ومن حولي زمرة من الرجال، وبينهم الذين أنقذوني، والكلّ يتحدّث بمنتهى الدهشة عن مغامرتي الجنونيّة في مثل تلك الليلة. وما هي إلّا ساعة وبعض الساعة حتّى جاؤوني بعشاء من الفراريج المشويّة، والجبن، والزيتون، واللبنة، والزبدة، والتين، والدبس مع الطحينة، وخبز «الصاج» وبعض المكسّرات. وأدركت أنّي بائت ليلتي عندهم. فتذكّرت والدتي. ورحت أفكّر في طريقة للاتصال بها، لعلّني أطمئنها فلا تضطرب إذا أنا لم أرجع إلى البيت حتّى الصباح. وما خطر في بالي أنّني أسبّب للقوم انزعاجًا لمّا سألتهم إذا كان في القرية تلفون. فما كان من ثلاثة من الشبان – عندما عرفوا الغاية من سؤالي – إلّا أن هبّوا في الحال وطلبوا إليّ رقم التلفون في منزلي. وإذ أعطيتهم إيّاه خرجوا من البيت ولم يعودوا إلّا بعد ساعتين. عادوا آسفين لأنّهم وجدوا خط التلفون معطّلًا. وقد عرفت أنّ أقرب محطّة للتلفون كانت تبعد عن القرية مسافة أربعة كيلومترات. ولو أنّني عرفت ذلك قبل أن خرج الشبّان من البيت، أو لو أنّني عرفت إلى أين هم ذاهبون، لما فتحت فمي بالسؤال عن التلفون. لقد صعقت يا صاحبي. صعقت خجلًا من أولئك الشبّان يكلّفون أنفسهم مهمّة كتلك المهمّة، وفي ليلة كتلك الليلة. وفي سبيل مَن؟ –

في سبيل غريب لم يروه من قبل في حياتهم! ولكنّني كسبت إيمانًا بأنّ المروءة لم يزل لها رجالها في الأرض. وكان كسبي عظيمًا.

«في الصباح صحا الجوّ فودّعت مضيفيّ. وإذ لمّحت إلى أنّني أريد مكافأته بشيء من المال ربّت كتفي بلطافة وقال: «عيب عليك!» واكتفى بتينك الكلمتين. فكان ذلك طعنة لكبريائي وبلسمًا لقلبي. وسار المختار معي إلى حيث السيارة، وسار معنا جمهور من الرجال. وما زالوا بالسيارة حتّى انتشلوها من الوحل. ولم يعودوا أدراجهم إلّا من بعد أن رأوني في السيّارة ورأوا السيّارة تدرج بسلام. فتأمّل!

«ذلك ما حدث لي مرّة في قرية صغيرة من قرى البقاع في لبنان».

قال صاحبي ذلك وأشعل لفافة ثمّ أردف:

«والآن إلى باريس. كنت في آخر سنة من سنيّ دراستي في السوربون. وكنت أُعدّ أُطروحة للدكتوراه. وقد اخترت لإقامتي فندقًا صغيرًا أعجبني بنظافته، وحُسن خدمته، وجودة مطبخه، وعلى الأخصّ بالجوّ العائلي الذي كان يسوده. فما انقضى شهران على إقامتي فيه حتّى بتّ أشعر كأنّني واحد من العائلة التي كانت تمتلكه وتديره. وقلّما كان يمضي أسبوع لا أحمل فيه بعض الهدايا لكبار العائلة وصغارها. أمّا الخدم فكنت أسخو عليهم بالمال لمناسبة ولغير مناسبة. فإذا جاءت الأعياد أعطيتهم فوق ما كانوا يتوقّعون بكثير. ولا تبجُّج في الأمر. فأنت تعرف مقدار عطفي على الخدم والعمّال من كلّ نوع مثلما تعرف أنّ والدي ما كان يبخل عليّ بالمال، وأنّني لا أحب المال إلّا لأنفقه في السبل التي تأتيني بلذّة نفسانيّة قبل اللذّة الجسدانيّة.

«أذكر أنّ صاحب الفندق – وقد بتّ وإيّاه نتخاطب بدون أقلّ كلفة – احتاج مرّة إلى مبلغ من المال لتسديد دين عليه فاقترضه منّي. وعندما ردّه إليّ وشاء أن يدفع لي فائدته أبيت أن آخذ منه فائدة. فاستكبر الأمر كثيرًا وما بقي يعرف كيف يعبّر لي عن امتنانه.

«وانقضت السنة على خير ما يرام. ونلت شهادتي فرزمت حقائبي استعدادًا للعودة إلى بلادي. وكنت أخشى ساعة الوداع أن لا يتمالك القوم ولا أتمالك عن البكاء. وسدّدت كلّ ما عليّ من حسابات. وأعطيت الخدم ما أطلق ألسنتهم بالثناء والدعاء. وما نسيت الطاهي في المطبخ. وجئت الصغار ببعض الهدايا للتذكار. وأزفت ساعة الرحيل. فحمل الخدم حقائبي إلى السيّارة الواقفة أمام الباب. وكان وداع مؤثّر، ولكن بغير دموع. وما إن هدر محرك السيّارة وأوشكت أن تنطلق حتّى سمعت صاحب الفندق يناديني باسمي، وبأعلى صوته: «تمهّل!» وأقبل عليّ وفي يده ورقة، وراح يعتذر ملوحًا بالورقة: «عفوك! لا تواخذني! بقيت علبة الكبريت».

«تبادر إلى ذهني أنّي نسيت في الفندق علبة كبريت، وأنّ ذمّة الرجل كانت أضيق من أن تتسّع حتّى لعود ثقاب لا يخصّه ويخصّ غيره. فأكبرت فيه هذه الأمانة وقلت ضاحكًا:

– ما هي بذات بال يا صديقي. ولن أبيع المودّة التي بيننا بعلبة كبريت. أبقها معك تذكارًا منّي.

«ولكنّه لم يضحك، ولم يرتدّ إلى الوراء، بل دنا منّي ملوّحًا بالورقة وقال بمنتهى الجدّ والكياسة:

– لا. لا. عنيت أنّه فاتني أن أُدخل في الحساب علبة الكبريت التي أخذتها في هذا الصباح يا صديقي. أفلا تكرّمت بثمنها؟.

«فنقدته ثمنها وقلت للسائق: أسرع!»

وتوقّف صديقي عن الحديث ليتابع بعد هنيهة:

«ولك يا صاحبي، كما قلت في بداية الحديث أن تستخلص من هذين الحادثين ما تشاء».

ذَنَب الحمَار

عندما سلّم بركات رسن حماره «الأشقر» إلى الشاري الغريب راح يودّعه وداعًا أسال دموع الرجل وفضوله، فقال:

– صرفت نصف عمري أبيع وأشتري الحمير والبغال. وحتّى اليوم ما تعلّقت، ولا عرفت من تعلّق، بحمار أو بغل أو أيّة بهيمة تعلّقك بهذا الحمار. بكيتَ فأبكيتني.

فأجابه بركات وفي صوته غصّة ودمعة:

– ولكنّه حمار ولا كالحمير يا صاحبي.

– ألعلّه يقرأ أو يكتب؟ أم لعلّه ينهق على «النوط»؟ أم أنّه جواد كريم يسبق الريح؟

فامتعض بركات من مزاح الشاري وتهكّمه وقال وقد أخذ ذنب الحمار بيده وراح يمسّده ويقبّله:

– في ذنبه من الفطنة فوق ما في رأس أكرم الجياد.

فقال الشاري وقد بدت الحيرة على وجهه وفي صوته:

– قبّلتَ عينيه فقلتُ: لا بأس. حتّى الحمير تنمّ عيونها عن أشياء وأشياء. وقبّلتَ أذنيه فقلتُ كذلك: لا بأس، فأذن الحمار تميّز بين الأصوات وتستجيب لصوت صاحب الحمار. أمّا أن تمسّد ذنبه بحنوّ ولا حنوّ الوالدة تمسّد رأس وليدها؛ ثمّ أن تقبّله بلهفة ولا لهفة العاشق يقبّل ثغر معشوقته، فذلك ما لست أفهمه على الإطلاق.

– ستفهمه يا صاحبي متى فهمت السبب.

– رجوتك أفهمني السبب إذا لم يكن سرًّا من الأسرار.

عندئذ اقترب بركات من الشاري وجذبه إليه بصوت خافت وهو لا يزال ممسكًا بذنب الحمار:

– هذا الذنب يا صاحبي كان قائدي في خلال السنوات العشر الأخيرة من عمري وما كنت أدري إلى أين كان يقودني. فلَكَم حمّلت «الأشقر» شتّى الأحمال، ومشيت خلفه في شتّى الدروب –

في الصيف والشتاء. في الربيع والخريف – وعيني عالقة بهذا الذنب، ترقب حركاته، وتكاد تحصي شعراته. حتّى بتّ أبصره في نومي وأحسب أنّه أبدًا في بؤبؤ عيني.

ومنذ أيّام هبطت و«الأشقر» المدينة حسب عادتنا في كلّ يوم. وكان يحمل حملًا ثقيلًا من الباذنجان. وانطلقنا إلى ضاحية لنا فيها زبائن، ووقفنا أمام بيت أطلّت سيّدته من الشرفة تسألنا عن أسعار الباذنجان. وأنا في حديث معها إذا بولد يمرّ من خلف «الأشقر» وفي يده عدد من أوراق اليانصيب وهو ينادي: «خمسين ألف ليرة يا صاحب النصيب!» واذا بالأشقر يلوّح بذنبه تلويحة عنيفة، فتضرب يدَ الولد وتطيّر منها ورقة تحطّ أمامي. فأنسى السيّدة على الشرفة وأنحني فألتقط الورقة، وأقول في نفسي: «إنّ الأشقر يا بركات يريدك أن تشتري هذه الورقة. وها هو قد انتزعها من يد الولد ووضعها في يدك. إنّها من نصيبك». واشتريت الورقة.

– والباذنجان؟ ألعلّك بعت منه في ذلك النهار، وربحت ما يعوّض عليك ثمن الورقة؟ – قال الشاري ذلك بشيء من الخبث والتهكّم ثمّ أردف: لقد كنتُ مجنونًا إلى حدّ أن خسرت أكثر من ثلاثمائة ليرة على اليانصيب ولم أربح قرشًا واحدًا. أمّا الآن فقد تبت. نعم. التوبة، ثمّ التوبة، ثمّ التوبة. اليانصيب – قلّة عقل.

– أمّا أنا فقد نفعتني قلّة عقلي. بل قل نفعني ذَنَب ألأشقر.

– أتعني... أتعني أنّك ربحت؟

– ربحت الجائزة الكبرى.

– الجائزة الكبرى؟! خمسون ألف ليرة؟!

– نعم. خمسون ألف ليرة.

– أنت تمزح.

– لا مزح في الأمر. سلْ من شئت في الضيعة يخبرك أن المكاري بركات ربح خمسين ألف ليرة. ولولا ذلك لما بعت الأشقر. إذ أنّه كان باب رزقي الأوحد.

– لا عجب إذن أن تودّعه هذا الوداع المؤثر. ولو أنّني كنت مكانك لما بعته أبدًا. بل لأبقيته عندي يأكل ويشرب ويسرح ويمرح إلى أن ينتهي عمره. ولدفنته بعد موته بالإجلال والإكبار، ثمّ لبنيت فوق قبره حجرة فخمة.

– ولكنّ زوجتي، وقد جاءتها هذه الثروة، باتت لا تطيق الحمير وروث الحمير ونهيق الحمير.

– لعلّ ذَنَب الأشقر يأتيني من السعد بمثل ما أتاك.

– ذلك ما أتمنّاه لك من صميم قلبي يا صاحبي.

وانصرف الغريب بالحمار وظلّ بركات يشيّعهما بعينيه إلى أن تواريا خلف الأكمة المكلّلة بالصنوبر. ثمّ عاد يفكّر في ما كان بينه وبين زوجته بشأن الطريقة المثلى للانتفاع بجائزة الخمسين

ألف ليرة. فقد كان من رأيه أن يبتاع بنصفها بستانًا ينتج شتّى البقول والفاكهة، وأن يحتفظ بالنصف الآخر فيقرضه بالفائدة. وهكذا يكفل لنفسه ولزوجته دخلًا دائمًا وشيخوخة هانئة. إلّا أنّ زوجته ما كانت ترى رأيه. بل كانت تصرّ على أن يبنيا بيتًا حديثًا يكون أحسن من بيت المختار بكثير، وأن يشتريا سيّارة. وما تبقّى ينفقانه حسبما تقضي الظروف. وهكذا تفقأ حصرمة في عين زوجة المختار «المتألّهة». إذ تصبح سيّدة مثلها، بل أرفع مرتبة منها. فهي لا تملك سيّارة.

وكان للزوجة ما أرادت. فبنى بركات بيتًا جميلًا وأصبح يسوق سيّارة خاصة بدلًا من حماره الأشقر. ولكنّه لم يكن سعيدًا. فقد بات يقلقه أشدّ القلق أن يرى زوجته تبذّر ما تبقّى لديها من المال كأن لا نفاد له، وأن تتمادى في غرورها، وفي منافسة زوجة المختار، وتقليد أهل اليسار تقليدًا نفّر منها ومن زوجها الأصحاب والجيران.

وحزّ في نفسه أن يجافيه الذين كانوا بالأمس رفاقه وأصدقاءه. يحيّيهم فلا يردّون التحيّة إلا تكلّفًا. ويبسم لهم فيقبلون له الشفاه. ويدعوهم إلى سهرة في بيته فيختلقون شتّى الأعذار. ولَكَم رآهم يمرّون ببيته، وينظرون شزرًا إلى السيّارة الواقفة أمامه، ثمّ سمعهم يقولون: «هذا البيت وهذه السيّارة من ذنَب الحمار». أمّا النسوة فكنّ إذا خرجت زوجته في ثوب جديد أو قبّعة جديدة تغامزن بخبث وقلن كذلك: «هذا الثوب، وهذه القبّعة من ذنب الحمار».

ذات يوم، وقد تبيّن لبركات أنّ ما لديه من المال أوشك على النفاد، قرّ رأيه على مكاشفة زوجته بالأمر. وكان يخشى الخوض معها فيه إذ كان يعرف حدّة طباعها ومرارة لسانها. ولكنّه استجمع كلّ ما عنده من جرأة وابتدأ بصوت لطيف خافت:

– لقد أصبحنا، يا مستورة، مضغة في أفواه الجيران والأصحاب. بل أصبحنا ولا جيران ولا أصحاب...

فأجابته بحدّة وبالكثير من التهكّم:

– يا للخسارة! وهل يصلح هؤلاء جيرانًا لنا وأصحابًا؟ إن الحسد يتأكّل قلوبهم. دعهم في قهرهم يموتون.

– ولكنّني أخشى في النهاية أن نكون نحن المقهورين لا هم.

– أنت جبان. أنت خسيس النفس. هكذا ربيت وهكذا تبقى. وُلدتَ على الحصير وتريد أن تموت على الحصير. ضايقك أن تتخلّص من الصراخ في كلّ صباح: «عسل يا أفندي! أسود يا باذنجان! لقّاني يا رمّان!» – ضايقك أن تنام في سرير. أن تلبس بنطلونًا بدل سروال. أن تركب سيّارة بدل الحمار. أنت جبان. أنت خسيس. أنت وذَنَب الأشقر سيّان.

– ستندمين على ذَنَب الأشقر.

– لن أندم حتّى عليك. ليتك ذهبت مربوطًا بذنب الأشقر عندما ذهب. إنّ مثلك لا يصلح لمثلي. لقد تزوّجتُ نكبة يوم تزوّجتك.

سكت بركات على مضض. إذ كان يعلم أن التمادي في الحديث لن يأتيه إلّا بالمزيد من التحقير وقواذع الكلم. وحدث بعد حين ما كان يخشى حدوثه. فنفد المال من يده. ولم يبق له غير البيت والسيّارة. وعبثًا حاول أن يقنع زوجته أنّ من الخير لكليهما لو هما باعا السيّارة، وعاد هو فاشترى حمارًا وراح يزاول مهنته القديمة. فمجرّد ذكر الحمار كان يثير سخطها حتّى الجنون:

«أؤثر ألف مرة أن أموت جوعًا على أن أعيش زوجة حمّار». – هكذا كانت تقول. وكانت ترضى أن يُرهن البيت قبل أن تُباع السيّارة. فالسيّارة في نظرها كانت عنوان المجد والتمدّن والسيادة.

وراحت الأحوال تتدهور من سيّء إلى أسوأ. فاغتمّ بركات أشدّ الاغتمام، وركبه الهمّ، فلا يلذّ له أكل أو نوم، ولا يطيق القعود في البيت ولا الخروج منه. ولم يجد محيصًا من رهن البيت. فرهنه برضى زوجته – بل بإلحاحها. وعندما أوشك مال الرهن على النفاد كاد يفقد رشده، وعلى الأخصّ عندما كان ينظر إلى زوجته فيراها وكأنّها لا تشعر بالكارثة تدنو يومًا بعد يوم. ولشدّ ما أذهله أن يسمعها ذات يوم تأمره بمنتهى البرودة: – اذهبْ وجئ بالسيّارة. فالنهار جميل. وبودّي أن أقوم بنزهة في طريق الوادي.

لم يجد بركات بدًّا من الامتثال. فمضى بزوجته إلى الوادي وهو يحسّ كما لو كانت السيّارة تجري على ظهره، وكما لو كانت النار المتأجّجة في صدره هي التي تدفع محرّكها. وكان النهار من نهارات الخريف النادرة بدفئها وصفائها وبهجة ألوانها.

بلغت السيّارة الجسر العالي في منتصف الوادي. وإذا بحمار محمّل جرارًا من الخزف يتقدّمها على الجسر ويقوده صاحبه. فسار بركات الهوينا خلفه لأنّ الجسر كان من الضيق بحيث لا يتّسع لحمار وسيّارة. وبغتة انتبه بركات إلى أنّ الحمار الماشي أمامه ما كان غير «الأشقر» بعينه. فالذّنَب ذَنبه والقطع قطعه. واللون لونه. والحافر حافره. ما في ذلك أقلّ الشك.

وصفّق قلب بركات وكاد يطير من صدره. وارتقصت أمعاؤه في داخله، وغامت عيناه، واضطرب المقود في يده فما درى إلا ومقدم سيّارته يرتطم بمؤخرة الحمار، فيهوي الحمار وتهوي السيّارة إلى قعر الوادي المرصوف بالصخور. ويتحطّم الاثنان شرّ تحطيم. وتزهق روح الزوجة في الحال. أمّا هو – بركات – فينجو بأعجوبة إلّا من بعض الرضوض في أضلاعه والخدوش في رأسه.

وقد شاع في الضيعة، بعد دفن الزوجة بيومين، أنّهم وجدوا على ضريحها ذنَب حمار. فقال الذين عرفوا «الأشقر» إنّ الذّنَب لم يكن إلّا ذنبه. وقال البعض إنّ الفعْلة لم تكن غير فعلة زوجة

المختار. وقال آخرون إنّ الذي قطع ذنَب «الأشقر» ووضعه على الضريح لم يكن غير بركات.